علاء عبد الحميد

فريق
متميزون
E-BOOK

تحرير نفس

خَواطِرُ فِي مَعْرِفَةِ النَّفْسِ

دار دوّن

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

حديثُ نفسٌ

(خواطر في معرفة النفس)

علاء عبد الحميد

عن الكتاب..

من كتاب حديث مع النفس.... إن محاولات فهم النفس تبدأ منذ الصغر وتمتد على طول العمر حتى آخر لحظة في الحياة..

يأخذنا هذا الكتاب في رحلة من حديث النفس نحاول فيها استكشاف التساؤلات التي تطرأ على الخاطر ويمر بها الإنسان يوميًا.. رحلة في البحث عن إجابات وحوار مع الذات حول الإيمان والمعرفة والنفس والآخرين من حولنا.. هذا الكتاب رحلة من التأمل, ربما تساعدك على التقرب من نفسك والتصالح مع الكون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مُقَدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الرَّابِعَةِ

منذُ أنْ صدَرَ هذا الكِتَابُ مِن عَامْينِ تقريبًا كانت التَّعدِيلَاتُ عَلَيْهِ لا تَعْدُوُ تصحيحَ بَعضِ الكلماتِ وحَسْبُ، ولكن عُقِدَتْ حَولَهُ عِدَّةِ لقاءاتٍ نِقاشيةٍ، واستَمَعْتُ لتعليقاتِ أصدقاءَ كُثْرٍ ولا سيَّمَا مِنَ المُشتغَلِينَ بعِلْمِ النَّفْسِ.

كانَ ثَمَّةَ خَوْفٌ لمستُهُ لَدَى الكثَيرِ مِنْ فِكرةِ أنْ يَكتشِفَ الإنسانُ نَفسَهُ ويقتَرِبَ مِنها ليتعرَّفَ عَلَيْهَا، كنتُ أقولُ: مِنْ شَرطِ هذه الرِّحْلَةِ لِدوَاخِلِ نفُوسِنَا أنْ نتَخلَّى عَنِ الحُكْمِ عَلَيْهَا والرَّغْبَةِ في إصْلَاحِها - مُؤقَّتًا - لِنسْتَمِعَ لِنفُوسِنَا بصدقٍ وبموضُوعيَّةٍ، فعِنْدَمَا نُمسِكُ عَصَا الإصلاحِ لأنْفُسِنَا نَجزَعُ مِنْ أَوَّلِ عَيبٍ نَكتَشِفُهُ، فإمَّا أنْ نَميلَ إلى سَتْرِهِ عَنْ أنفُسِنَا وإمَّا أنْ نتوقَّفَ فِي مُنتَصِفِ الطَّريقِ، ولا نَكتَشِفَ باقي خفَايَاها.

فمِنْ أشَدِّ ما يَحجُبُنَا عَنْ نُفُوسِنَا هو قِلَّةُ تَصالُحِنَا معَ عُيوبِنَا، وشُعورُنَا المُستَمِرُّ بالذَّنْبِ، وبأنَّ العَيْبَ نَقيصةٌ، وخلطُنَا بَيْنَ رِحلتِنَا في تَكْمِيلِ نفُوسِنَا، وإصِلاحِ عيُوبِنَا، وبَيْنَ حَقيقَةِ أنَّنَا بَشرٌ لَنْ نَبْلُغَ الكَمالَ المُطْلَقَ أبدًا.

فنَحْنُ بَشَرٌ مُكلَّفُونَ بإصْلاحِ النَّقصِ عَلى قَدْرِ الوُسْعِ، ولَكِنْ قَبْلَ إصلاحِ النَّقصِ لا بُدَّ مِنْ مَعرِفَتِهِ، ونَحنُ لم نَعْتَدِ الاَقترابَ مِنْ هَذهِ المِنطَقةِ المَحظُورَةِ، فنُوهِمُ نُفوسَنَا دومًا أنَّ الأمورَ على ما يُرامُ، ونَعتادُ ارتداءَ الأقنعةِ، ونُعلِّلُ السُّلُوكَ بِغيرِهِ، ونَسْتُرُ الحقيقةَ بِستَائِرَ مِنَ الوَهْمِ، فإنْ ضِقْنَا ذِرعًا بهذا الاسْتِتَارِ انفجَرْنَا بإظهارِ كُلِّ خَفايَانا كأنَّنا نتخلَّصُ مِنْ مَؤُونَةِ السِّرِّ، ونظنُّ أنَّنَا لو تَخلَّصْنَا مِنْ قَيدِ الكتمانِ سنَكُونُ أكثَرَ حُريَّةً، وهَيْهاتَ!

فالحُريَّةُ الحقيقيةُ في المَعرِفَةِ، لا في الظُّهُورِ ولا في الخَفَاءِ، الحُريَّةُ الحَقِيقيَّةُ في الاتساقِ مَعَ الحقَائقِ لا في التصَالُحِ مَعَ النَّاسِ؛ لِهذَا كانت الحِكْمَةُ التي أسْعَى لَها هي أن نَصِلَ إلى هذهِ المعادَلَةِ: أنْ نَعْرِفَ نُفُوسَنَا، وفي نَفسِ الوقتِ أنْ نتصالحَ مَعَ الألِمِ الذي قَدْ نَكتَشِفُهُ في هذه المعْرفةِ وفي الجُذورِ العَميقَةِ التي تُخفِيها أروَاحُنَا، وذلكَ كَمرحلةٍ أُولَى للإقرارِ بِالحقَائِقِ والاعتيادِ على مُصارحةِ النَّفسِ بِهَا، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ - بَعَدَ اعتيادِ الصِّدْقِ مَعَ النَّفْسِ والوَعْيِ بِهَا - يَبدأُ كُلُّ إنسانٍ - وَفْقَ مُعتقَدِهِ، ووَفْقَ مَعرفَتِهِ - في إصلاحِ ما يُؤمِنُ بأنَّهُ خطأٌ، وَيبدأُ رِحلَتَهُ نَحوَ الكَمالِ مِنْ غَيرِ رَغبةٍ في الكَمالِ!

فالكَمالُ هو الوِجْهَةُ التي نَسيرُ إليها ولا نَبلُغُها، بَلْ كَمالُكَ حيثُ تَنتهي رِحْلَتُكَ بانتهاءِ عُمرِكَ، وعَمَلِكَ وسَعْيِكَ.

جاءَ هذا الكتابُ مُختصَرًا كإشاراتٍ، فَلْمَ أَكتُبْهُ كَمَرْجِعٍ، لَكِنْ كتَبْتُهُ كحَجَرٍ أُلقِيهُ في الماءِ الرَّاكِدِ، لأُحرِّكَ بِهِ رُكُودَ النَّفْسِ وغَفْلَةَ القَلبِ؛ فإنْ وَجدَتَ فيهِ ما

يُحرِّكُ هِمَّتَكَ لِمعْرِفَتِكَ بِنَفْسِكَ وبِشوقُك للمَزيدِ، فلَعَلَي ألحِقُ به كتابًا آخَرَ يَكونُ أكثَرَ تَفصيلًا، وأَوسعَ بَيانًا، وإلَّا فَهذاَ الكتابُ هو حديثٌ هَامِسٌ مِنَ النَّفْسِ إلى النَّفْسِ.

في هذه الطَّبْعَةِ أبقيتُ على الكِتَابِ في أصْلِهِ، غَيْرَ أنِّي زِدتُ بَعْضَ الفَقَراتِ التي رأيتُها مُهِمَّةً، وعَدَّلتُ قليلًا في بعضِ الصِّياغَاتِ فِي مَواضَعَ يَسيرةٍ، وأضَفْتُ مَقالتَيْنِ هُمَا «العطَاءُ» و«الوُجودُ»، ثُمَّ رأيتُ أَنْ أُلْحِقَ بِهِ حَلقاتِ بَرْنَامجِ «الطَّريقُ إلى القَلْبِ» الذي أُذيعَ في رمضان ١٤٣٩ هـ على قَنَاةِ «رُوَاة» وهو عبارةٌ عَنْ خَواطِرَ مُكثَّفةٍ عَنْ مَعْرِفَةِ القَلبِ في أَسْطُرٍ يَسيرةٍ، رأيُت أنَّها تُكْمِلُ مَوضوعَ الكِتابِ، وخَشِيتُ عَليْهَا مِنَ الضَّياعِ، فأضَفْتُهَا كقسمٍ ثالثٍ للكتَابِ، وأخَّرتُ الخاتمةَ، كلُّ هذا مع ضَبْطِ الكتابِ كاملًا بالشَّكْلِ، ورجائي أنْ يَستمِرَّ نَفْعُ هذا الكتابِ وأنْ يَكُونَ أوَّلَ الغَيثِ في مَعْرفَةِ النَّفْسِ.

علاء عبد الحميد

القاهرة

٥ ربيع الأنوار ١٤٤٢هـ

٢٢ / ١٠ / ٢٠٢٠م

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المُقدِّمَةُ

هذا كِتابٌ يَسقِيكَ ولا يَروِيكَ، ولَكِنَّ السَّائِرَ في الصَّحراءَ يَقْنَعُ بِبَلِّ الشِّفَاهِ، والظَّمآنُ يَفْرَحُ بِيَسيرِ المياهِ.

ورُبَّ شَرْبةٍ أحيَتْ نفْسًا، ورُبَّ قليلٍ شَوَّق إلى كَثيرٍ، والعاقِلُ مَنْ ابتدأَ بِالكَلِمَةِ ليَقْرَأَ كِتابًا، وبالخيطِ ليَنْسِجَ ثيابًا.

هو كلماتٌ جاءَتْ عَفْوَ الخَاطِرِ، أو خَواطِرُ سِيقَتْ في كَلِمَاتٍ. قَدْ تَجِدُ أنَّها لا يَجْمَعُها رَابطٌ، وليسَ الأمرُ كَذلِكَ، بَلْ رابِطُهَا أنَّها «حديثُ نَفْسٍ» إلى النَّفْسِ، خَواطِرُ يَجمَعُها أنَّها مُحاوَلاتٌ في فَهْمِ نَفْسِي، وفَهْمِ غَيْرِي.

وليسَ هذا الحديثُ بِلَغْوٍ لا فائدةَ فِيهِ، بَلْ هُو أمرٌ أَطلُبُ بِهِ ما وراءَهُ؛ فنَفْسِي صَاحِبَتي في دُنيَايَ؛ إنْ أحسَنْتُ صُحبتَهَا وسِياستَهَا، أحسَنَتْ صُحْبَتي في رِحْلَتِي، فبلغنا سويًّا غايةً أرجُوها وأطلُبُهَا.

وإنْ جَهِلْتُ بِهَا جَهِلتُ عَليْهَا، فتعَارَكْنَا في الطَّريقِ وأهلَكَتْنَا المُشاكَسةُ، وضاعَتْ أعمَارُنا في النِّزَاعِ والتَّخَاصُمِ، فلَا أدْرَكْنَا السَّيرَ، ولا بَلَغْنَا الوِجهةَ.

فكانَ لا بُدَّ لأُحسِنَ صُحْبَتَها أنْ أُحسِنَ الاستمَاعَ لَها، أرَىَ كَيفَ تُفكِّرُ، وكَيفَ تتقلَّبُ في الأيَّامِ، فكانَ لا بُدَّ مِنَ الغَوْصِ فيها وتأمُّلِها، وكأنَّنَا لا نَبْلُغُ عَنانَ السَّماءِ حتى نَغوصَ في حَضيضِ الأرْضِ.

لا أَزْعُمُ أنَّ هَذَا كُلُّ ما وجَدْتُهُ، ولا حتى أكثَرُهُ، بَلْ هذا ما سَمحَ به البَيانُ، فجاءَ مُرتَجَلًا مُتشعِّبَ الأوْجُهِ ومُتقلِّبَ المَذَاقِ، ومُتفَاوتَ الحَجمِ.

رُبَّما رأيتَ فِي بَعْضِ كَلِمَاتِي سوءَ ظَنٍّ بِنَفْسِي أو اتهامًا لِغَيري، فلا تَتَّهِمْنِي بأنِّي أُعمِّمُ وأفْتَرِضُ في كُلِّ إنسانٍ أنَّهُ لَيْسَ بصادقٍ، أو أنَّ التَّفسيرَ الوحيدَ لأفعالِنَا هو ما ذَكَرْتُهُ هُنَا، بَلْ هَذهِ مُجرَّدُ مُحاولاتٍ وأمثلةٍ لِكَيْفَ تَخْدَعُنَا أنفُسُنَا، كيفَ تُظهِرُ لنَا خِلافَ ما تُبْطِنُ، كيفَ تَحْمِلُنَا على صِنَاعَةِ الوَهْمِ.

حَسْبي أنِّي أَصِفُ لَكَ «بعضَ» الصُّوَرِ، لتَسْتَدِلَّ بالمَذكُورِ على المَسْكُوتِ، وتَعتادَ ألَّا تَقِفَ عَلى ظَواهِرِ الأشياءِ، بل أن تُفتِّشَ عَنْ بَواطِنِ الحقائقِ، فإنْ وجَدْتَها مُطابِقَةً لِمَا ظهرَ مِنْهَا فاحْمَدِ اللهَ، وإلَّا فَحَسْبُكَ أنَّكَ اهتَدَيْتَ «لِبَعْضِ» حِيَلِ النَّفْسِ، ولـ «بَعْضِ» أوهَامِها التي تَصْنَعُهَا.

وقد قسَّمتُ الكتابَ - بعد التمهيدِ القَادِمِ - لقِسْمَيْنِ:

الأوَّلُ: في طُرُقِ مَعرِفَةِ النَّفْسِ، ذكَرْتُ منها عشْرًا في إيجازٍ، وقَنِعْتُ في بَعْضِ هذه الطُّرُقِ بِسَطْرَيْنِ أو ثَلاثةٍ، فلَيْسَ المقصودُ تَكثيرَ الكَلَامِ بَعْدَ وُضوحِ

المعنى.

الثاني: في حديثِ النَّفْسِ، وهو خَواطِرُ في مَعْرِفَتِي بِنَفْسِي أو بالنَّاسِ، رُبَّما ارتقيتُ مِنْهَا إلى تنبيهٍ شَريفٍ على مَعرِفَةِ اللهِ تعالى، فجاءَتْ بعضُ الخَواطرِ اِرْتقَاءً عَنْ حَضيضِ وَصْفِ البَشريَّةِ إلى الكلامِ على نُعُوتِ الأُلُوهيَّةِ.

فدُونَكَ إشاراتٍ وكَلِمَاتٍ يَسيراتٍ، من «حديثِ نَفْسٍ» عن نَفْسِها أو فَهْمِهَا، فإنْ كانَ فيها من قُصُورٍ؛ فذَلِكَ دومًا شأنُهَا، وإن كانَ فيها من تَوفيقٍ وفَتْحٍ إلَهِيٍّ؛ فذَلِكَ مِنْ فَضْلِ رَبِّها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كيفَ نَفْهَمُ نُفُوسَنَا؟

شِدَّةُ القُربِ حِجَابٌ، ومِثالُهُ في الحِسيَّاتِ أنَّكَ إذَا وضَعْتَ جِسْمًا أمامَ عَيْنِكَ كالنِظَّارَةِ، لا تَكَادُ تتبيَّنُ معَالِمَهُ، فإنْ أبَعْدتَهُ قليلًا بدأ يَظهَرُ مِن مَلامِحِهِ ما كانَ خَفيًّا، وما زِلتَ تُبّاعِدُهُ عنْكَ شَيئًا فشيئًا حتى تُبصِرَهُ مِنْ جَميعِ زَوايَاهِ، وتتَمكَّنَ مِنْ إحسَانِ رُؤيَاهِ. ولَكِنْ إنْ زِدْتَ في بُعدِهِ انقلَبَ قَصْدُكَ للنَقِيضِ، وعادَ الوضوحُ خَفَاءً.

فثمَّةَ نقطةٌ معيَّنةٌ البُعدُ عنهَا - سواءٌ بالقربِ إليكَ أمْ بالبعدِ عنكَ - يُحِيلُ الرُّؤيةَ وَهْمًا، والبصَرَ غَبَشًا وظِلًّا.

والأَمْرُ في المعنوياتِ مِثْلُهُ في الحِسيَّاتِ، ألا ترى أنَّنَا لا نُدرِكُ قِيمةَ الأبِّ أو الأُمِّ إلا بَعْدَ فِرَاقِهما، فكأنَّهُمَا ما ابتعدَا إلا لِيتَضِحَا!

ما أكثرَ النِّعَمَ - كالصِّحَةِ والقُدرَةِ على الهَضْمِ والتنفُّسِ - التي لا نُدْرِكُ وجُودَها إلا عندما تُفَارِقُنَا شيئًا يَسيرًا!

فلِشِدَّةِ القُرْبِ لا يَنشَغِلُ الإنسانُ بالقَريبِ ولا يُبصِرُهُ.

وأقرَبُ الأشياءِ إليكَ نَفْسُكَ، فلِشِدَّةِ قربِهَا لَكَ تَحتاجُ لمرآةٍ تبعُدُ عنكَ؛ لتَظْهَرَ فيها الرؤيةُ بجلاءٍ، مرآةٍ صافيةٍ لا قريبةٍ شديدةِ القربِ، ولا بعيدةٍ شديدةِ البُعدِ.

وتَحتاجُ في هذه المِرآةِ إلى أنْ تَقِفَ بسَمْتِها أمامَها، لا حَائِدًا جِهَةَ اليمينِ أو جِهَةَ الشِّمالِ.

فلَنْ تَعْرِفَ نَفْسَكَ ما لَمْ تَبْتَعِدْ عَنْهَا!

ولَنْ تَبْتَعِدَ عَنْهَا ما لم تُجرِّدْ مِنْهَا شَخْصًا آخَرَ، تُحَاوِرُه وتَنْظُرُ إليهِ، وتتكلَّمُ مَعَهُ وتحكُمُ علَيْهِ.

وهذا سبيلٌ عَسيرٌ؛ إذْ أكثَرُنَا اعتادَ النَّظَرَ لِغَيْرِهِ لا إلى نَفْسِهِ، بَلْ رُبَّمَا استخرَجَ أشدَّ عيوبِ غَيْرِهِ خَفاءً، وكان فيهِ ما هو أشدُّ مِنْهَا ظُهورًا وجَلاءً. وقديمًا قَالوا: لا تَرَ القَذَاةَ في عَيْنِ أخيكَ وَتدَعْ جِذْعَ النَّخْلَةِ في عَيْنِكَ!

ولَكِنْ لأنَّ كُلَّ شَيءٍ بالتعوُّدِ يَصيرُ طبعًا، والطَّبْعُ بالتطبُّعِ؛ فثَمَّةَ أمورٌ جَرَّبَها المُجرِّبُونَ، وخاضَ في مسَالِكِها العامِلُونَ؛ فلا بأسَ إنْ أشَرْنَا إلى طَرَفٍ مِنها، ولْتَأخُذْ مِنْهَا أحسَنَها.

فمِنْ طُرُقِ مَعْرِفَةِ النَّفْسِ:

١. أنْ تُدْرِكَ الصِّفَاتِ المشترَكَةَ للنَفْسِ الإنسانيَّةِ.

٢. أنْ تَنْظُرَ إلى نَفْسِكَ في تقلُّبَاتِ الموَاقِفِ وتَضاعِيفِ التَّجَارِبِ.

٣. أنْ تَنْظَرَ فيما تكرَهُهُ وتُحِبَّهُ في غَيْرِكَ، وتَبْحَثَ عَنْهُ في نَفْسِكَ.

٤. أنْ تَسْتَبْصِرَ بِعَيْنِ غَيْرِكَ، ولَوْ عَدُوَّكَ.

٥. أن تَقْسِمَ عُمرَكَ لِقِسْمَيْنِ، فتُقارَنَ مَا كانَ بالأَمْسِ بِمَا تَجِدُهُ اليَوْمَ.

٦. أنْ تكْسِرَ عادَاتِكَ وتَخرُجَ مِنْ أَنمَاطِكَ.

٧. أنْ تُخالِطَ مَنْ يَحْسُنُ مِنْكَ في خَصْلةٍ.

٨. أنْ تُفتِّشَ عَنْ صِفَةٍ ما وتَبْحَثَ في نَفْسِكَ عَنْهَا.

٩. أنْ تَصْحَبَ الكَامِلَ مِنَ الخَلْقِ .

١٠. أنْ تتأمَّلَ الخَلْقَ وتتفرَّسَ في سِيَرِهِم.

فهَذهِ عَشْرُ طُرُقٍ مُجمَلةٍ - يأتي تفصِيلُهَا إنْ شاءَ اللهُ - ومَقصُودي أنْ أَشرَحَ لَكَ الفِكْرَةَ، أمَّا التَّفْصِيلُ فيُطلَبُ مِنْ مَوْضِعٍ آخَرَ، فهذهِ مُجرَّدُ خَواطرَ تفتَحُ البَابَ وتَصِفُ الدَّارَ ثُمَّ تُغادِرُكَ، وأنتَ وَحْدَكَ الذي تَرْحَلُ معَ الأفكَارِ وتَطْلُبُ التَّفَاصيلَ.

ولمَّا كانَ الكلامُ المَكتوبُ لا يَصْحَبُكَ إلا بِقَدْرِ تعقُّلِكَ لَهُ، ولا يُظهِرُ لَكَ مِنْ نَفْسِ مُؤلِّفِهِ وفِكْرِهِ إلَّا ما جادَتْ بِهِ قَريحَتُهُ وسمحَتْ بِبَوْحِهِ نَفْسُه وخضعَ لَهُ فِيهِ قَلَمُهُ، لَمْ يَكُنْ هُناكَ سبيلٌ إلى أن نَصْحَبَكَ إلا بأفكَارِنَا، ولا أنْ تَستَفْيدَ منَّا إلا بِما نَصِفُهُ لَكَ مِنْ أَمْرِنَا؛ فكانَ عسيرًا عَلَيْنَا أنْ نُساعِدَكَ في سَابِقِ هَذهِ الطُّرُقِ إلا بالأُولَى، فنَصِفُ لَكَ ما في النَّفْسِ مِنْ صِفاتٍ، ونُبرِزُ لكَ ما خفيَ فيها - رغمَ شِدَّةِ وُضوحِهِ - مِنْ نِعَمٍ أو زَلَّاتٍ، فتَجِدُ لبَعْضِ أوصافِ النَّفْسِ البَشريَّةِ وَصْفًا، وتَجِدُ لِبَعْضِ حقَائِقِهَا تَجَلِّيًا ورَسْمًا.

على أنِّي لا أُخلِي وَصْفي من خُصوصِ نَفْسي، فإني ما وصَفْتُ لكَ إلا ما شاهَدْتُه في نَفْسِي، فكانَ في تَجريدِهَا لَكَ انكشافٌ لَكَ، وفي كَشْفِها خصوصُ صُحبَةٍ معَكَ.

رُبَّما حكيتُ لَكَ بَعْضَ ما كانَ منِّي - مِمَّا تَسْمَحُ النَّفسُ بحكَايَتِهِ - ورُبَّمَا وصَفْتُ لَكَ بعضَ مَا شاهدتُهُ، لا لأنَّ نَفْسِي حَاكِمةٌ عليكَ، ولا لأنَّهَا المعيارُ الحَاكِمُ لَكَ، بَلْ لأنِّي أشتَرِكُ معَكَ في جِنْسِ النُّفُوسِ، فكَأنِّي أصِفُ لكَ ما بَيْنَنَا مِنَ اشتراكٍ، وإنْ ظهرَ في صُورةِ خُصوصيَّةِ حَالٍ، أو خصوصيَّةِ تَجرِبَةٍ؛ فأكونُ قَدْ جَمعتُ لَكَ الطريقةَ الأولى التي تتكلَّمُ عَنِ النَّفْسِ مِنْ حَيثُ هي نَفْسٌ، والطَّريقةَ الأخيرةَ التي تَحْكِي لكَ قَصصَ الخَلْقِ.

على أنِّي ما استوعَبتُ ولا قَارَبتُ، بل أخَذْتُ شَذراتٍ وأشَرْتُ لِلَمَحاتٍ، تُعِينُكَ على التفطُّنِ، وتُشوِّقُكَ إلى المَزيدِ. واللبيبُ يَقْنَعُ بالإشارةِ، والبليدُ لا يَزِيدُهُ

طَولُ العبَارَةِ إلا اِتكَالًا على غيرِه، ووقوفًا عندَ أسمَارِ اللّيْلِ وحديثِ النَّفْسِ.

ولَمْ أُغادِرْكَ في وَصْفٍ - مما انتقيتُ لَكَ مِنْ قَليلِ الأوصافِ - حتى أشَرْتُ في بَعْضِهَا - إن تيسَّرَ ذَلِكَ - إلى بابِ الدُّخُولِ على اللهِ، فقَدْ جاءَ في الأثَرِ «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»، قالوا: عَرَفَ نَفْسَهُ بالافتقَارِ، فعَرَفَ رَبَّهُ بالغِنَى، أو عرَفَ نَفْسَهُ بالنَّقْصِ فعرَفَ رَبَّهُ بالكَمَالِ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولَكِنْ مَاذَا بَعْدَ هَذهِ المَعرِفَةِ؟

هذا الكتابُ لَيسَ كِتَابَ «كيفَ»، بَلْ هو كتابُ «ما»، فهو يُعرِّفُكَ بَعْضَ المَعْرِفَةِ ما النَّفْسُ؟ ومَنْ أَنْتَ؟ لا يُخْبِرُكَ ماذا ستَفْعَلُ بهَذِهِ المَعْرِفَةِ، ولا كيفَ تُعالِجُ مرضَكَ أو تُكْمِلُ نَقْصَ نَفْسِكَ.

وإنْ كانَ ثَمَّةَ «كَيْفَ» في هذا الكتابِ، فَهِي «كيفَ تَعْرِفُ؟» لا «كَيْفَ تَعْمَلُ بِهذِهِ المَعْرِفَةِ؟».

وبعضُ الأُمُورِ لا نَحْتَاجُ فيها سِوى أنْ نَعْرِفَ. بَعضُهَا حَقائِقُ ثابتةٌ لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ، ومُشْكِلَتُنَا أنَّنَا لا نَعْرِفُهَا، ونتعامَلُ على أساسِ نَقيضِها!

معرِفَتُنا بضَعْفِنَا ليسَ المطلوبُ بها أن نَصيرَ أقوياءَ، إذْ الضَّعْفُ البَشَرِيُّ صِفةٌ مُلازِمَةٌ لَنَا لا نَنْفَكُّ عَنْهَا، ولا تَنْفَكُّ عَنَّا، فليسَ المطلوبُ علاجَها، بل العَملُ بِمُقتضَاها!

العمَلُ بمُقتضَاها مِنَ اللُّجوءِ إلى القَويِّ سُبحانَهُ، والرِّضَا بِقَدَرِ اللهِ مِنْ أمراضٍ وأوجاعٍ، بل من ذُنُوبٍ وآثامٍ!

لا أَعْنِي الرِّضا السَّاكِنَ الذي يَمْنَعُكَ مِنْ تَحريكِ يَدِكَ طَلَبًا للشفاءِ، أو تَصحيحِ تَوْبَتِكَ طَلَبًا للنجاةِ. فإنَّ عدَمَ فِعْلِكَ لِهَذا ليسَ بِرضًا، بلْ هو خنوعٌ!

الرِّضَا الذي أَعْنيه هو عَدمُ يأسِ القَلْبِ مِنْ ضَعْفِهِ أو ذَنْبِهِ، وعدَمُ القُنوطِ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ.

أنْ تَعْرِفَ أنَّ ما أصابَكَ لَمْ يَكُنْ ليُخطِئَكَ، وما أخطأكَ لَمْ يَكُنْ ليُصيبَكَ، وأنَّ الطَّاعَةَ والمَعصيةَ بِقَدَرِ اللهِ؛ فلا تَفْرَحْ وتَغتَرّ بِطاعَتِكَ - إلَّا مِنْ حَيثُ كَوْنُها بِشَارةً بحُسْنِ الخاتِمَةِ، ولا تجزَعْ ولا تَيْأَسْ مِن ذُنوبِكَ إلَّا مِن حيثُ خوفُكَ أنْ تكونَ نِذَارَةً بسُوءِ المصيرِ، فتُحَرِّكَ يدَكَ شكرًا على الطاعةِ وطلبًا للمزيدِ، وترفَعَ يدَكَ بالصَّرَاعَةِ والإنابةِ عندَ كلِّ ذنبٍ هربًا مِنَ المزيدِ.

وهذا الرِّضَا لا يَحصُلُ إلَّا بِمَعْرِفَتِكَ لِنَفْسِكَ، فإنْ تحقَّقَتْ هذه المعرِفَةُ أثمرَتْ - لا مَحالةَ - حالًا في القلبِ يَقْوَى بِطُولِ تَذكُّرِهِ، وبالعمَلِ بمُقتضَاهِ، حتى يَصيرَ لَكَ خُلُقًا لا تُفارِقُهُ.

فليسَ كُلّ مَعرفَةٍ يَتْبَعُها سؤالُ «كيفَ العَملُ؟»، بَلْ ثَمَّةُ مَعارفُ تُطلَبُ لِذَاتِها وهي التي تَبْعَثُ على العملِ!

ألا ترى أنَّ أشْرَفَ المعَارِفِ - معرفةَ وحدانيةِ اللهِ وألوَهيَّتِهِ - مطلوبةٌ لِذَاتِهَا، ثُمَّ هي - إنْ حَصلَتْ - أورِثَتْ لا محالةَ العبوديةَ والامتثالَ، وجَمعَتْ الهمَّ وقطعَتْ تَعلُّقَ القَلْبِ بالشُّرَكَاءِ.

والمعرفةُ أحَدُ مَقاصِدِ العُلومِ، فليسَتْ كُلُّ العلُومِ عَملياتٍ المطلوبُ فيها العمَلُ، بَلْ بعضُها علمياتٌ، المطلوبُ فيها العِلمُ والاعتقَادُ.

نَعَم، ثَمَّةَ ما يُعمَلُ ويُبحَثُ عن طريقِ عِلاجِهِ أو عن طريقِ اكتسَابِهِ، ولكنَّ هذا ليسَ غرضَنَا في هذا الكتابِ، فتِلْكَ رِحلةٌ أخرى أصعَبُ وأشَقُّ.

وحَسْبِي أن وصَفْتُ لكَ رَفيقَ سفَرِكَ - أَعْنِي النَّفْسَ - وإنْ لَمْ أَرْحَل مَعْكُمَا، فرُبَّمَا حرَّكَكَ قَليلُ الوَصْفِ هُنَا لِطَلَبِ المَزيدِ مِنْ مَوْضِعِهِ، وربما أنهَضَكَ الوَصْفُ لمُعالَجَتِهِ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القِسمُ الأوَّلُ
في طُرُقِ مَعْرِفَةِ النَّفْسِ
الطَّرِيقَةُ الأُولى في مَعْرِفَةِ النَّفْسِ

أنْ تُدْرِكَ الصِّفَاتِ المُشترَكَةَ

للنَفْسِ الإنْسَانيَّةِ

فالنُّفُوسُ واحدةُ الخِلْقَةِ وإن تفاوَتَتْ صورةً وهيئةً. نَعَمْ بَعْضُنَا يُوصَفُ بِشيءٍ والآخَرُ يُوصَفُ بِغَيْرِهِ، إلّا أنَّ أصْلَ المَوصُوفِ واحدٌ.

كالأجسادِ تُوصَفُ بالسَّوَادِ والبياضِ، ولكنَّ قَوانينَ الجسَدِ واحدةٌ، يموتُ إنْ أحرقْتَهُ، ويَنزِفُ إنْ جَرَحْتَهُ، ولا يَخْلُو عَن لونٍ ومَكانٍ.

فكذَلِكَ النُّفُوسُ، تتنوَّعُ أوصَافُها، وتتشكَّلُ هيئاتُهَا، وقانونُها واحدٌ.

رُبَّما أُحِيلُكَ على «إحياء عُلوم الدِّين» للغزالي يَأخذُ بِيَدِكَ في رِحلةٍ إلى نَفْسِكَ شارحًا لكَ عجائبَ القَلْبِ، ومَكَائِدَ النَّفْسِ.

ولَكِنْ دَعْنِي أُشيرُ لَكَ بِنَمُوذَجٍ تَفْهَمُ بِهِ مُرادِي، وتَسْتَضِيءُ به لِما وراءَهُ، ولنُمهِّدُ لِذلَك بتقسيمٍ وتعريفٍ:

فإنَّ النَّفْسَ البَشريَّةَ كائنٌ مَوصوفٌ بصفاتٍ ولَهُ خَواصٌ وقَوانينٌ، وقَدْ شبَّهُوهُ بمَلِكٍ متوَّجٍ على البدَنِ، وراحوا يَصِفُونَ أعوانَهُ مِنْ وزراءَ وجُندٍ وجواسيسَ، فقالُوا: العَقلُ وَزيرُهُ، والحوَاسُ جَواسيسُهُ، والأعضاءُ جُندُهُ وآلاتُهُ.

ونَحنُ نَعنِي بالنَّفْسِ الإنسانيَّةِ هُنَا ما يُطلَقُ عَليْهِ أحيانًا «القَلْبُ» أو «الرُّوحُ»، فإنَّ هذا المُصطلحَ - أعْنِي: مُصطلَحَ «النَّفسِ الإنسانيَّةِ» - تارةً يُستخدَمُ ويُرادُ بِهِ الشهواتُ - وليسَ هذا مقصُودي هُنَا - وتارَةً يُستخدَمُ ويُرَادُ بِهِ السِّرُّ الإلَهيُّ الذي به الحياةُ والإدراكُ والصلاحُ والفسادُ، وهذا مُرادِفٌ لِمَفْهُومِ «القَلْبِ»، و«الرُّوحِ».

إلا أنَّ العُلَمَاءَ يستخدمُونَ لفظَ «الرُّوحِ» أكثرَ إذا أرَادُوا الحَدِيثَ عَنْ جانبِ التعلُّقِ باللهِ في الإنسانِ، ويستخدِمُونَ لفظَ «القَلْبِ» أكثرَ إذا أرادُوا التعبيرَ عَن مَحِلِّ الصلاحِ والفسادِ في الإنسانِ، وموضعِ النيةِ والعزيمةِ، ومحلِّ المشاعرِ والحُبِّ والبُغْضِ، ويستخدمُون لفظَ «النَّفْسِ» أكثرَ إذا أرادُوا الحديثَ عَنِ الشَّهَواتِ والنزعةِ الأرضيةِ في الإنسانِ.

فنحنُ نَقْصِدُ بِالنَّفْسِ هُنَا: «السِّرَّ الإلَهِيَّ» الذي يُعبَّرُ عَنْهُ بالقَلْبِ. الذي الشهواتُ أَحَدُ أَتْبَاعِهِ في مَمْلَكَتِهِ، والعَقْلُ والجوَارِحُ أعوَانُهُ.

وهذه النُّفْسُ مَحلٌ للصفَاتِ التي يُعبَّرُ عَنْهَا بالأخلاقِ، ولها وِجْهَتَانِ كأنَّها إنسانٌ لَهُ وَجهَانِ، وَاحدٌ مِنْ أمامِهِ والثاني من ظَهْرِهِ، وجهٌ مِنْهُمَا مُتَّجِهٌ ناحيةَ السَّمَاءِ بما تَحْويهِ مِنْ عَالَمِ الملائِكَةِ والرُّوحِ، ووَجْهٌ مُتَّجِهٌ ناحيةَ الأَرْضِ بِما تَحوِيهِ مِنَ الشَّهَواتِ والملذَّاتِ.

ولكُلِّ وجهٌ جَواذِبُ تَجْذِبُهُ فالأرضُ تَجْذِبُ النَّفْسَ بالشهواتِ، كشهوةِ البَطْنِ وشَهْوَةِ الفَرْجِ وشَهْوَةِ التَّأَلُّهِ وحُبِّ الجَاهِ.

والسَّماءُ تَجْذِبُ النَّفْسَ بِالمعرِفَةِ باللهِ والحِكْمَةِ والعِلْمِ.

ولكُلِّ جهةٍ مِنْ جِهاتِ التنازُعِ أعوانٌ يُساعِدُونَها على جَذْبِهَا، والمَيْلِ إليها، فجِهَةُ الأرضِ تَسْتَعينُ بِشياطِينِ الجِنِّ يُوسْوِسُونَ في الصَّدْرِ، ويُلْقُونَ بذْرَةِ الفِكْرَةِ في أَرضِ القَلْبِ لتَنْبُتَ بالشَّهْوَةِ، وبشياطينِ الإنسِ يَسْتَوْلُونَ على الحسِّ فيَمْلَؤُونَهُ بريقًا يَسْحَرُهُ، ويُمَهِّدُونَ للأعضاءِ سبيلَ المعصيةِ وطريقَ الشهواتِ.

وَجِهَةُ السَّماءِ أعوانُهَا الملائكةُ يُلقُونَ بذْرَةَ الفكرةِ في أرضِ القَلبِ لتَنْبُتَ بالإيمانِ والإخْبَاتِ ومَعْرِفَةِ اللهِ والحذَرِ من النَّفْسِ، والصالحونَ مِنَ البَشَرِ الذينَ يَدْعُونَهُ إلى الهُدى ائتِنَا، ويمهِّدُونَ لَهُ سَبيلَ الطَّاعَةِ والعِلْمِ النَّافِعِ، ويَجْذِبُونَهُ مِنْ قُيودِ أَهْلِ الأَرْضِ.

ثُمَّ كانَ مِن ابْتِلاءِ النفسِ أنْ جُعِلَتْ حاجتُها في البقاءِ موضوعةً في جهةِ الأرضِ، وحاجَتُها في النجاةِ في جِهَةِ السَّمَاءِ!

فلا تَبْقَى النَّفْسُ إنْ جذَبْتَهَا بالكُلِّيَّةِ عَنْ شهَوَاتِهَا وأرضِهَا، بَلْ لا بُدَّ لَهَا مِنْ طَعامٍ ونِكَاحٍ وصُحبةٍ بها تَستَقِيمُ حَيَاتُهَا، كما أنَّها لا تَنْجُو بالكُلِّيَّةِ إنْ انقطَعَتْ عَنْ جِهَةِ السَّمَاءِ وأخلدَتْ إلى الأرضِ.

وبين وَجْهَيِّ النَّفْسِ يَقِفُ العَقْلُ مُدبِّرًا ومُشِيرًا، ناظرًا إلى الجِهَتَيْنِ مَعًا، ومُلَاحِظًا سطوةَ أحدِهِمَا عَلَى الآخَرِ، فيُحذِّرُ أو يُشجِّعُ، ولَكِنَّهُ قَدْ يَميلُ إلى جهةٍ فيختلُّ مِيزَانُهُ، فتَجِدُ الصَّالِحَ الجاَهِلَ يُفرِطُ على نَفْسِهِ في العَمَلِ الصالحِ حتى يُهمِلَ بقاءَ نَفْسِهِ؛ فَتَنْفَهَ وتَتْعَبَ وتعجزَ عَنِ المسيرِ؛ إذْ حاجَتُها إلَى البقاءِ مربوطةٌ بجهةِ الأرضِ.

وقد تَسْتَوْلِي على العَقْلِ الشهواتُ فَتَرْشُوهُ وتُفسِدُهُ وتَسْتَمِيلُهُ، حتى يكونَ لها عَوْنًا، فيُزيِّنَ للقَلْبِ جهةَ الشَّهواتِ، ويُبَرِّرَ له الميلَ إلى الدُّنيا، ويُزَهِّدَهُ في الآخِرَةِ.

فلمّا كانَ العَقْلُ وزَيرًا غَيْرَ مَأمُونِ العَاقِبَةِ، لا يُؤمَنُ مَيْلَهُ لِجِهَةِ الإفراطِ أو التفريطِ، جاءَ مَدَدُ السماءِ بالشَّرَائِعِ، لتَكونَ وزِيرًا لا يَحيدُ، وجاءَ الأنبياءُ لِيَنْصَحُوا العَقْلَ ويُرشِدُوا النَّفْسَ، ويُبيِّنُوا جِهاتِ الهِدَايَةِ وطَرِيقَ السَّيْرِ.

فهذا تَلخيصٌ يسيرٌ لِمَعْرِفَةِ النَّفْسِ، يُشيرُ إلى معانٍ كثيرةٍ، إن تأمَّلْتَها زادَ فَهْمُكَ لِطَبيعَةِ النَّفسِ التي نَحيَا بِهَا، وزدْتَ ووقوفًا على قوانِينِهَا.

فَمِنْ قَوانينِ النَّفْسِ أنَّها ذاتُ شَهوةٍ تحرِّكُها وعَقلٍ يَكْبَحُهَا.

قَدْ نَتفَاوَتُ في شِدَّةِ جموحِ شهَوَاتِنَا أو في قُوَّةِ سَطْوَةِ عقُولِنَا وإيمانِنَا، إلَّا أنَّنَا مُشتَرِكُونَ - لا مَحالةَ - في وُجُودِ الشَّهوةِ والعَقْلِ.

قَدْ نتفَاوَتُ في نَوْعِ الشَّهَوةِ الذي يُحرِّكُنِي ويُحرِّكُكَ، أو يَقْوَى عِنْدِي ويَضْعَفُ عِنْدَكَ وبِالعَكْسِ، فهذا تَفاوُتُ أوصافٍ لا تفاوُتُ ذَواتٍ.

ومِنْ قَوانينِ النَّفْسِ أنَّها مُتغيِّرَةٌ في تَرَقٍّ أوْ تَدَنٍّ، تَكْتَسِبُ وتَفْتَقِدُ، تتغيَّرُ وتَتَبَدَّلُ.

أمَّا مَا تَكْتَسِبُهُ اليَومَ وتَفْقِدُهُ، فمُخْتَلِفٌ فِيَما بَيْنَنَا.

ومِنْ قَوانِينِ النَّفْسِ جَهْلُهَا وعِلْمُهَا، تتعلَّمُ وتَجْهَلُ، وتَعْلَمُ فتَعْمَلُ أو تَجْهَلُ فتُضَيِّعُ، ورُبَّمَا عَلِمَتْ فكانَتْ أشدَّ تَضْيِيعًا!

أمَّا ماذا نَعْلَمُ، وماذا نَجْهَلُ؟ فمتفَاوِتٌ بَيْنَنَا، إلَّا أنَّنَا - كُلَّنَا - ذَوُو عِلْمٍ وجَهْلٍ.

فهذا ما قَصَدْتُهُ بِمَعْرِفَةِ النَّفْسِ، أنْ تقرأَ عَنْ وَصْفِهَا وطَبيعَتِهَا، فتَنْتَبِهَ لِمَا تَتَّصِفُ بِهِ وتَخْلُو منْهُ.

الأَمرُ أشْبَهُ بدرَاسَةِ التَّشريحِ في عِلْمِ الطِّبِّ، فإنَّكَ تَدْرُسُ الجسَدَ الإنَسَانِيَّ لتَسْتَدِلَّ بالمُشتَرَكِ فيهِ بَيْنَ البَشرِ على سائِرِ الأجسَادِ.

فَلَنْ تَعْرِفَ المرضَ ما لمْ تَعْرِفِ الصِّحَّةَ، ولنْ تعرفَ المرضَ والصِّحَّةَ ما لمْ تَعْرِفِ المَوْصُوفَ بهِما.

أمَّا كيفَ تعرفُ وصفَ النفسِ؟ ففِي أوَّلِ ربعِ المُهْلِكَاتِ مِن «إحياءِ عُلومِ الدِّينِ» مَقْنَعٌ، وسيأتيكَ بعضُ البيانِ هُنَا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطَّرِيقَةُ الثَّانِيَةُ في مَعْرِفَةِ النَّفْسِ

أنْ تَنْظُرَ إلى نَفْسِكَ في تَقلُّبَاتِ المَواقِفِ وتَضاعِيفِ التَّجَارِبِ

أخلاقُ النَّفْسِ وصِفَاتِها - سواءٌ كانَتْ خَيْرًا أمْ شَرًّا - أمورٌ بَاطِنَةٌ لا تُظْهِرُهَا إلا المواقفُ والأيَّامُ.

والإنسانُ يَسْهُلُ عَلَيْهِ أنْ يتوهَّمَ وُجودَ وَصْفٍ في نَفْسِهِ، ويَظُنُّ أنَّه مُتحقِّقٌ بِهِ، والحقيقةُ تَكوُنُ بِخلَافِهِ.

إنَّكَ أبدًا لَنْ تَعْرِفَ إذا ما كُنْتَ مُتوكِّلًا ومُطمئنًّا لِرزقِ اللهِ لَكَ مَا لَمْ تَشْعُرْ بِالفَقْرِ أو تَقْتَرِبْ مِنْهُ بِشِدَّةٍ، فيَسْهُلُ على الإنسانِ أن يدَّعِي أنَّهُ لا يَخافُ أمَرَ الرِّزقِ ما دَامَ راتِبُهُ مُستمرًّا، وجَيْبُهُ مُمتَلِئًا، وفي دُولَابِهِ أو حِسَابِهِ بَعْضُ المَالِ المُرصَدِ لِطوارئِ الزَّمَانِ.

ولَكِنَّ تَوكُّلَكَ الحقِيقِيَّ يَظْهَرُ عِنْدَمَا تَنْفَدُ أمَوالُكَ، أو تَفْقِدُ وظيفَتَكَ - لا قدَّرَ اللهُ لَكَ ذَلِكَ - أو تَمُرُّ بِكَ أزْمَةٌ ماليةٌ لا تَعْلَمُ متى انفراجُهَا ولا تَجِدُ مَنْ يُقْرِضُكَ مالًا.

حينَهَا يَظْهَرُ يَقِينُكَ مِنْ شَكِّكَ، وتَوكُّلُكَ مِنْ عَدَمِهِ.

فكَمَا لا نَعْرِفُ أصحابَنا إلا في تقلُّبَاتِ الحياةِ - ولا سيَّمَا الأزَمَاتُ - فنَعْرِفُ مَنْ مِنْهُم الرَّجُلُ الَّذي يُعتَمَدُ عَلَيْهِ ومَنْ مِنْهُم الذي لا تَأمَنُ أنْ تَستَعِينَ بِهِ، فكذلكَ النفسُ لا تُظْهِرُ لكَ طِباعَها إلا في عوارضِ الزمانِ وتقلُّباتِ الأيامِ.

لنْ تعرِفَ شجاعتَك ما لمْ تَطْرَأْ أسبابُ الخوفِ، ولَنْ تَعْرِفَ صِدْقَكَ ما لَمْ تَفْقِد الأمَانَ، ولَنْ تَعْرِفَ كَرمَكَ ما لَمْ يَكْثُرْ ضُيوفُكَ وعِيالُكَ، ولَنْ تَعْرِفَ عفَّتَكَ مَا لَمْ تُمْتحَنْ بِالقُرْبِ مِنْ أسبَابِ الشَّهوَاتِ.

وليسَ المقصودُ أنْ نُعرِّضَ أنفُسَنا للبَلاءِ أو نَقْتَرِبَ مِنْ أسبابِه، فالنَّفْسُ في عافيةٍ، وغَالِبُ عافِيَتِنَا نَاشئةٌ مِنْ رَحمَةِ اللهِ بِنَا أنْ لَمْ يُعرِّضْنَا لِمَا يَمْتَحِنُ إيمانَنَا ويَختَبِرُ صِدْقَنَا، ولَوْ تَأمَّلْتَ لَوَجَدتَ أنّ الغَالِبَ عَلَيْنَا هُو السَّتْرُ؛ فإنَّكَ لَمْ تُوضَعْ في مَوْضِعٍ تَقْتَرِبُ مِنْكَ امرأةٌ ذاتُ مَنْصبٍ وجَمالٍ وتَخْلو بِكَ فتدعوكَ إلى نفْسِها، أو لَمْ تُمكَّنْ مِنَ الرِّقَابِ والعِبَادِ ويُطلَبُ مِنْكَ أن تَعْدِلَ في عَدوِّكَ، فإنَّ هَذهِ الأمُورَ لو ابتُلِينَا بها لافْتَضَحَ ضَعْفُ نُفُوسِنَا، ولَرُبمَّا ظهَرَ لنَا مِنْهَا ما يشتدُّ فِيهِ نَكيرُنَا على العُصَاةِ، فَلْنَقْبَلْ مِنَ اللهِ عَافيَتَهُ.

نَعَمْ، لَيْسَ المطلوبُ أنْ نعرِّضَ نُفُوسَنَا للمِحْنَةِ لِنَخْتَبِرَهَا، بَلْ المطلوبُ أنْ نُراقِبَها، والحياةُ لا تَخْلُو مِنْ تَقلُّبٍ، فإنْ تَبدَّلَ الزَّمَانُ فَرَاقِبْهَا في تبدُّلِهَا وتغيُّرِهَا عِندَ الخيرِ والشَّرِّ.

هل ازدادَتْ غَفْلَةً وطُغيانًا بِكَثْرَةِ المَالِ، أَمْ ازدَادَتْ قُربًا وشُكرًا، وهَلْ صَانَتْ الوُدَّ القَديمَ لأصدقاءِ الأَمْسِ إنْ تفرَّقَتْ الأوطانُ وتبدَّلَتْ بِهِم الأحوَالُ؟

إنَّ طوارِئَ الزَّمَانِ ومَواقِفَهُ هي الامتحانُ، وما تَصْطَنِعُهُ طَوالَ الزَّمَانِ هو اِستِعْدَادُكَ لَهُ.

فلا تَظَنَّنَ أنَّ مَنْ اَبْتُلِيَ بمُصيبَةٍ فجزِعَ قَدْ كُلِّفَ مَا لا يُطَاقُ، بَلْ ما أظهرَتْ المُصيبَةُ إلا قِلَّةَ استعدَادِهِ، وكَثْرَةَ ركُونِهِ لأسبابٍ تَزُولُ، فالامتحَانُ لا يأتي إلَّا بَعْدَ وَقْتِ المُذَاكَرَةِ!

ولَكِنَّ لُطْفَ اللهِ أنْ أبْقَاكَ حَيًّا، وسَاقَ إليكَ كَاشِفًا عَنْ استعدَادِكَ لِلِقَائِهِ أو غَفْلَتِكَ عَنْ نَفْسِكَ، فإنْ سِيقَتْ إليكَ الدُّنيَا ولَمْ تَشْكُرْ، أو انْصَرَفْتْ عَنْكَ نِعْمَةٌ فَلَمْ تَحتَسِبْ وتَصْبِرْ، فقَدْ كُشِفَ لَكَ مِنْ نَفْسِكَ ما كانَتْ تُخفِيهُ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطريقةُ الثَّالِثَةُ في مَعْرِفَةِ النَّفْسِ

أن تَنْظُرَ فِيمَا تَكْرَهُهُ وتُحِبُّهُ في غَيْرِكَ وتَبْحَثَ عَنْهُ في نَفْسِكَ

فالنَّفْسُ أقَدَرُ عَلى نَقْدِ غَيْرِها، وذَلِكَ أنَّنَا نَمِيلُ إلى حُبِّ نُفوسِنَا والرِّضَا عَنْهَا، ولَكِنْ ما يُؤذِينا يَظْهَرُ بِوضُوحٍ في غَيْرِنَا وقَدْ نَكوُنُ نَفْعَلُهُ، وما يُسْعِدُنَا يَظْهَرُ بِوُضُوحٍ في فِعْلِ غَيْرِنَا وقَدْ لا نَفْعَلُهُ.

قد تَكثُرُ عَلَيْكَ الهَدايا في عِيدِ مَوْلِدِكَ، وتَفْرَحُ بِحُبِّ النَّاسِ لَكَ، فَهَلْ تُحِبُّهُم كما أحَبُّوكَ وتَسْعَى في إسعَادِهِمْ كمَا سَعْوا؟

قَدْ تَكْرَهُ مِنْ صَدِيقِكَ قِلَّةَ صَبْرِهِ عَلَيْكَ، أو تعصُّبَهُ في نِقاشِهِ مَعَكَ، فَهَلْ تَفْعَلُ ذَلِكَ معَ غَيرِهِ؟

وليسَ المقصودُ أنْ تَخْتَبِرَ خُلُقَكَ مَعَ نَفْسِ مَنْ لاحظَتَ فِيهِ نَفْسَ الخُلُقِ، بَلْ أنْ تَنْتَبِهَ لِوجُودِ المعنى وإن اختلفَتْ تَجلِيَّاتُهُ!

فمَثلًا، قَد تَشْكُو من قِلَّةِ صَبْرِ زَميلِكَ في العَمَلِ على تَعليمِكَ بَعْضَ دَقائِقِ الوَظيفةِ أو مُشكلاتِ العمَلِ، وتَرى أنَّكَ تَصْبِرُ عَلَيْهِ وهو لا يَفْعَلُ، ولكنَّكَ لو تأمَّلْتَ صَبْرَك على زَوْجَتِكَ عندَمَا تَطْلُبُ مِنْكَ أن تُعلِّمَها قِيادَةَ السيَّارَةِ، أو والِدَتِكَ عندما تَطْلُبُ مِنْكَ تَعْلِيمَها شَيئًا مِنْ استخدامَاتِ الهَاتِفِ؛ لَرُبَّما وجَدْتَ أنَّ صَبرَكَ أقَلُّ كثيرًا مِنْ صاحِبِكَ، بَلْ أنَّكَ لا تَكادُ تُطيقُ الصَّبْرَ أصْلًا.

وسِرُّ ذلكَ أن الخُلُقَ قد يظهرُ لباعثٍ غيرِ كونِه خُلُقًا، فمثلًا: أنتَ تُحِبُّ زميلَكَ في العملِ، أو تُحِبُّ عملَكَ وتستمتعُ به فتحِبُّ أن تشرحَه لزملائِكَ، ولكنَّك لا تُطِيقُ صبرًا تعليمَ زوجتِك؛ لأنهُ خارجَ دائرةِ شَغَفِكَ.

والخِدْعَةُ الكَبيرةُ أنَّنا نُقَارِنُ أخلاقَنَا بأخلَاقِ غَيْرِنَا في نَفْسِ التعَامُلِ، ومَعَ نَفْسِ الشَّخْصِ، فنَكْرَهُ زَميلَنَا الذي لا يَصْبِرُ عَلَيْنَا رَغمَ أنَّنَا نَصْبِرُ عَلَيْهِ، في حينِ أنَّ ما تَكْرَهُهُ مِنْ خُلُقٍ فِيهِ قَدْ يَظْهَرُ عِنْدَكَ في مَوْطِنٍ آخَرَ مَعَ شَخْصٍ آخَرَ.

فالمَطْلَوبُ أنْ تَلْحَظَ ما تَحْمَدُ مِن خُلَقٍ أو تكرَهُهُ في غيرِكَ، فتبحثَ عنهُ، وتُراقِبَه فِي نفسِكَ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطريقةُ الرَّابِعةُ في مَعْرِفَةِ النَّفْسِ

أنْ تَستبصِرَ بِعَينِ غَيْرِكَ، ولو عدوَّك

فكما كنتَ أَجْدرَ النَّاسِ على مُشاهدةِ غَيْرِكَ، فَثِقْ أنَّ النَّاسَ أجدَرُ مِنْكَ عَلى مُلاحظَةِ عَيْبِكَ وفَضْلِكَ، فَهُم يَرونَكَ أكثَرَ مِمَّا تَرى نَفْسَكَ، وكَمْ مِنْ شَيءٍ أبصَرَهُ الخَلقُ وسَكَتُوا عَنْهُ! والكريمُ مَنْ أَهْدَى إليكَ عيبَكَ.

ونَحنُ لَمْ نَعْتَدْ سَماعَ رأيِ غَيْرِنا فينَا أو وَصْفِهِم لنَا، رُبَّما لأنَّنا لَمْ نَمْنَحْهُمُ الفُرصةَ أو نشجِّعْهُم على أن يُخْبِرونَا بِعيُوبِنَا التي يَرونَهَا.

فاستمِعْ لهُم، ولا تظُنَّنَ أنَّ مهاجمةَ أحدِهم لكَ هي محضُ عداوةٍ، فحتّى لو كان يُبغِضُك، فلولا أنْ رأى فيكَ شيئًا لَمَا أبرزَه، والأحمقُ هو مَن يصفُ الشُّجَاعَ بالجُبْنِ، وإنما يلتقطُ قصورًا فيكَ؛ ليُبرِزَه ويَزيدَه ويَنشُرَه، فلولا ما رآه لمَا خاضَ فيهِ.

نعَمْ لا أُنْكِرُ أنَّ بَعْضَ النُّفُوسِ المَريضةِ يَحْمِلُها البُغضُ على الافتراءِ والتقوُّلِ، ولَكِنْ ليسَتْ كُلُّ العداوَاتِ هَكَذَا، فإنْ ساقَ لكَ الزَّمَانُ وصفَ غَيْرِكَ لَكَ - ولَو لَمْ يَكُنْ لَكَ مُحِبًّا - فلا تُهْمِلْهُ، فالخَلْقُ شُهُودُ الحقِّ.

ولكنْ هُنا مزلقٌ دقيقٌ، فالناسُ في استماعِهم لكلامِ الناسِ عنهم بينَ أخطارٍ شتَّى؛ فهُم قدْ يُثْنُونَ عليكَ مدحًا بما ليسَ فيكَ، وقدْ يُسِيئُونَ فَهْمَ ما أنتَ فيهِ، وغالبُ الناسِ يَحْمَدُونَ ويَذُمُّونَ مَا يُوافِقُ طِباعَهُم أو تستحسِنُه عوائدُهُم.

أما ترى النَّاسَ تَرى في مُؤثِرِ الوَحْدَةِ شَخْصًا كئيبًا، وفي قَليلِ الكلامِ شَخْصًا بَغيضًا؟ وفي الحقيقةِ ما قالوا ذلك إلا لما تَسْتَحْسِنُهُ طِباعُهُم، وفي كَثيرٍ مِنَ الأحوالِ لا يَسْتَحْسِنُونَ إلا ما يُحِبُّونَ!

وليسَ المطلوبُ أن تكونَ على مِثالِهِم، أو تَعْزِلَ أخلاقَكَ عَلى مِنوالِهِم، بَلِ المَقصودُ أنْ تَسْتَبصرَ بِعيونِهِم، فلا بُدَّ مِن أنْ يكُونَ لكَ ميزانٌ وراءَ نَظَرِهِم، فَهُم يَصِفُونَ ما يَرونَ ويَخْلِطُونَ رؤيتَهُمْ بالحُكْمِ، فعَلَيْكَ أنْ تُغرْبِلَ كلامَهُم وتَنخلَهُ، لتَفْصِلَ بَيْنَ ما رأوْه وبينَ ما أرَادُوه!

والعَاقِلُ كمَا يَسْتَمِعُ لِغَيْرِهِ، لا يتأثَّرُ بِغَيْرِهِ، فليسَ كُلُّ ما يَقولُهُ النَّاسُ صِدْقًا وحَقًّا، وليسَ كُلُّ ما يَقولُونَهُ بَاطلًا مَحْضًا، وكُلَّما كان واصِفُكَ أعقلَ وأنضجَ وأكثَرَ لَكَ خِلطةً، سهَّل عليكَ الأَمْرَ، وأعانَكَ على الفَصْلِ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطريقةُ الخَامِسَةُ في مَعْرِفَةِ النَّفْسِ

أنْ تَقْسِمَ عُمرَكَ لقِسْمَيْنِ،

فتُقارِنَ ما كانَ بالأَمْسِ بِمَا تَجِدُهُ اليومَ

فمَاضي الإنسانِ انفصلَ عَنْهُ، وما انفصلَ عَنْكَ سَهُلَتْ عليكَ مراقبَتُهُ، والموازنةُ بينَهُ وبَيْنَ ما أنتَ فيهِ.

وهذه الطريقةُ لَيْسَتْ هي ما عنَيتُ بمشاهدةِ النَّفْسِ في تقلُّبَاتِ الأيَّام؛ فهُناكَ أردتُ ملاحظَتَها في الحوادثِ والطوارئِ، وهُنَا أَعْنِي مُقارنةَ الحاضِرِ بالماضي، والأمسِ باليومِ.

هناك كنتُ أعني أن تستغلَّ الظرفَ الطارِئَ عليكَ فتنظُرَ ما تفعلُ فيهِ، وهنا أقصدُ أن تقارِنَ بين شخصينِ، فتجعلَ ماضِيَكَ شخصًا سِواكَ.

والفَرْقُ بَيْنَ الطَّريقَتَيْنِ، كالفَرْقِ بَيْنَ أنْ تُعطِي جسدَكَ دَواءً أو تُعَرِّضَه لاختبارٍ لِتَكْشِفَ عَنْ وُجودِ الدَّاءِ، وبَيْنَ مُلاحظَةِ حَالِكَ في زمانِ الصِّحَّةِ ومُقارنَتِهِ بِحالِكَ في زَمَانِ المرَضِ.

فَلْتَرْقُبْ مَا تغيَّرَ مِن أوصافِكَ، ماذا كنتَ تَكْرَهُ وتُحِبُّ، وماذا صِرْتَ الآنَ تكرهُ وتحبُّ، ولِمَ اختلَفَ الأمسُ عَنِ اليومِ، وما سِرُّ ذلكَ التبَدُّلِ!

قَدْ يَظْهَرُ لكَ اختلافُ نَفْسِكَ في نَوعِ الأُغْنِيَّةِ التي كنتَ تَسْمَعُها أو القِصَّةِ التي صِرْتَ تَسْتَمْتِعُ بِهَا، وقد يَظْهَرُ لكَ اختلافُ نَفْسِكَ في ذَوْقِكَ في ملابِسِكَ، أو اختيارِكَ لأصدقَائِكَ، أو تبدُّلِ هِواياتِكَ، أو موضوعاتِ حَديثِكَ أو أنماطِ يَوْمِكَ.

ما الذي غيَّرَ هذا عن ذاكَ؟ وما الذي جعلَكَ تَزْهَدُ في هذا وتُحِبُّ ذاكَ؟

ولَكِنْ هَاهُنا مزلقٌ آخرَ، فلَيْسَ كلُّ الماضي أفضَلَ، ولا كُلُّ الحَاضِرِ أنضَجَ، رُبَّما تبدَّلَتْ مِنَ الحَسَنِ للأَحْسَنِ، وربما العَكسُ، ورُبَّما هو اختلافُ مُقتَضَى الحَالِ وطبيعةِ الزَّمانِ.

فحماسةُ أوَّلِ الشبابِ وتوَقُّدَهَ ليسَتْ أفضلَ مِن رزانةِ منتصفِ العمرِ وتمهُّلِه، وليستْ تلك بالضرورةِ أيضًا أكْملَ مِن الحماسةِ، فلكلِّ زمانٍ طبعُهُ الذي يليقُ بِه، وفضلُه الذي يحسُنُ بهِ. ولولا حماسةُ الشبابِ لَمَا أقدمَ إنسانٌ علَى تغييرِ واقعٍ ظَنَّ أنَّهُ لنْ يزولَ؛ فلو كانت الدنيا كلُّها كُهُولًا لصارتْ رتيبةً لا تسيرُ إلَّا في نمطٍ معتادٍ، ولو كانت الدنيا كلُّها شبابًا، لَمَا استفَدْنَا بتجرِبَةِ الأمسِ ولَكَرَّرْنَا أخطاءَ العادَاتِ.

فمِنْ تكامُلِ الدنيا تبايُنُها، ومِن كمالِ الإنسانِ تردَّدُه بينَ الأطوارِ. والمُهِمُّ أنْ تعرِفَ سرَّ التبدُّلِ ووَجْهَ الفَرْقِ بَيْنَ الأمسِ واليَوْمِ، هل هو مُجرَّدُ مُرورِ العُمرِ أمْ هي قَسوةُ القَلْبِ؟

فخُذْ مِنْ مَاضِيكَ شَخْصًا آخَرَ غَيْرَكَ، وقَارِنْهُ بِكَ في حاضِرِكَ، ثُم سَلْ عَنْ الفَرْقِ، وسَلْ عَنِ القِيامِ بالحقِّ، فلكُلِّ زمانٍ حقُّه ولِكُلِّ وقتٍ وَاجِبُهُ، فزمانُ النِّعمَةِ حَقُّه الشُّكرُ، وزمانُ الفَقْرِ حَقُّه الصَّبْرُ، فَهَل كُنتَ صابرًا في فَقْرِكَ شَاكرًا في غِناكَ، أمْ كانَ صَبْرُكَ انتظارًا، وغِنَاكَ غَفلةً واطمئنانًا؟

فهكذا يَظْهَرُ لَكَ مَعْدِنُكَ، وستُبْدِي لكَ الأيَّامُ ما كُنتَ جاهلًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطَّريقةُ السادِسَةُ في مَعْرِفَةِ النَّفْسِ

أنْ تَكسِرَ عاداتِكَ وتَخْرُجَ مِنْ أنماطِكَ

وذلك أنَّ الإنسانَ أسيرُ عادتِه، وما دامَت العادةُ مطردةً، وأنماطُ عملِكَ واحدةً، فلنْ تعرفَ حقيقةَ خُلُقِك، فكثيرٌ من أعمالِنا لا يُنَجِّحُها سوى اتساقِ عاداتِنا واستمرارِها على وتيرةٍ واحدةٍ، وكأنَّ العادةَ بمنزلةِ جهازِ القيادةِ الذاتيةِ في الطائرةِ أو السيارةِ، تتركُ لها قيادةَ المركبةِ لتسيرَ وحدَها بلا تركيزٍ منكَ ولا حضورٍ.

ألَا ترَى أنكَ إنْ أتقنْتَ قيادةَ السيارةِ وكانَ طريقُكَ ثابِتًا تحفظُه بنتُوءاتِه وحُفَرِه، معَ الوقت لا تستهلُك منكَ القيادةُ أدنى جهدٍ حتى تبدأَ في ممارسةِ مهامَّ أخرى في أثناءِ القيادةِ!

فكأنَّ العادةَ هنا صارَتْ طبعًا إضافيًّا لك، يجعلُ بدنكَ يعملُ من دونِ مراجعةٍ لأفكارِك وأخلاقِك ومشاعرِك.

ألا ترى الأطباءَ - معَ طُولِ التَّعامُلِ معَ المَوْتِ - لا يتأثَّرونَ بِمَوْتِ مَريضٍ، ورجالَ الإطفاءِ لِطُولِ التعامُلِ مَعَ النيرانِ لا يَجزَعُونَ لِرؤيَةِ لَهَبٍ.

هكذا هي العادةُ، تَسْتَوْلِي عليكَ فتَقودُ رُوْحَكَ ونَفْسَكَ، فَلَنْ تَستطيعَ أبدًا أنْ تُدْرِكَ حَقيقةَ مَشاعِرَكَ وأخلاقِكَ ومهاراتِك وما تُتقِنُهُ وما لا تُتْقِنُهُ ما دُمتَ أسيرَ عَاداتِكَ، فتحتاجُ لمُفارقَتِهَا شيئًا يسيرًا ليَنكشِفَ لكَ وجودُكَ الحقيقيُّ، وتَظهَرُ رَوحُكَ المتواريةُ.

جرِّبْ أن تجلسَ معَ أطفالٍ - إنْ لم تكُنْ تفعلُ - وقدْ يَظهرُ لكَ قلةُ صبرِك أو وجودُ كِبرٍ فيك، وجرِّب أنْ تجلسَ معَ مُسِنِّينَ لتكتشفَ قلةَ رحمتِكَ أو رقةَ طبعِك، وجرِّبْ أنْ تسافرَ لتَظهرَ أخلاقُكَ مع أصحَابِك.

الصُّورُ كثيرةٌ، ويَجْمَعُها كلّها أنَّكَ ما دُمتَ تَفْعَلُ نَفْسَ العَمَلِ كُلّ مَرَّةٍ، فلَنْ تَظْهَرَ لَك حقيقةُ نَفْسِكَ.

فالإنسانُ يميلُ إلى أنْ يحبسَ نفسَه في مُربَّعِ الأمانِ الذي اعتادَ عليه، فَفيهِ لا تُختَبرُ قيَمُهُ، ولا تتصارَعُ أفكارُهُ، فكُلُّ الأمورِ مُعتادةٌ، وكلُّ جَديدٍ مرفوضٌ. وفي هذا السكُونِ تكونُ الأمورُ دومًا على ما يُرام، فكيفَ يعلمُ الإنسانُ عجزَه وهو لَمْ يحرَّكْ يدَه؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطريقةُ السَّابِعةُ في مَعْرِفَةِ النَّفْسِ

أنْ تُخالِطَ مَنْ يَحْسُنُ مِنْكَ في خَصْلِةٍ

بالأضدادِ تتمايزُ الأشياءُ، ولن أعرفَ قدرَ قوَّتِي ما لمْ أصارِعْ إنسانًا قويًّا، فإنْ كنتُ طَوالَ حياتي لا أصارعُ إلا الأطفال وضعفاءَ البدنِ فإني سأظلُّ في وَهْمِ أنِّي قويٌّ، ولستُ كذلك.

فمَنْ يعيشُ معَ أناسٍ لم يعتادُوا الكرمَ فرُبَّما يتوهمُ في نفسِه الكرمَ وليسَ فيهِ، فليكُنِ السبيلُ الأدقُّ لانكشافِ نفسِك لكَ أنْ تصحبَ القويَّ في خَصلةٍ حسنةٍ، لتقارنَ نفسكَ به وتعلَمَ قدْرَ اتصافِك بها بالنسبةِ إليه.

ولستُ أقصدُ في هذه الطريقةِ أن تقلدَه أو تحاولَ أنْ تبلُغَ قدرَه، بلْ أعنِي أنَّ النفسَ دائمًا في حُكمِها على الأشياءِ تحتاجُ إلى «معيار»، ذلك أنَّ الحُكمَ هو نسبةٌ تُضاف إلى الأشياءِ، فلولا ملاءمةُ سطحٍ ما لحرارةِ البدنِ، لَمَا حكمْتَ عليه بأنهُ معتدلٌ، لا ساخنٌ ولا باردٌ.

فكذلكَ تحتاجُ لكي تعرفَ قدْرَ اتصافِكَ بصفةٍ ما أنْ تنسبَها إلى شيءٍ لتعلَمَ قدرَ وجودِها عندَك، فاصحَبْ مَن يحسنُ منكَ في خَصلةٍ، وقارِنْ فعلَكَ بفعلِه، وعلَى قدرِ ما تشاهدُه من تفاوتٍ بينكما تعرفُ قدرَ نقصِكَ ويتضحُ لك خلُقُك.

وهنا أيضًا مزلقٌ مهمٌّ ينبغِي التفطُّنُ له، وذلك أن الناسَ متفاوتونَ في الأخلاقِ والطباعِ، وما يسهُلُ على إنسانٍ رُبَّما لا يقدِرُ عليه آخَرُ إلا بنوعِ تكلُّفٍ، وليسَ المطلوبُ أنْ نكونَ كلَّنا على شاكلةٍ واحدةٍ في الخُلقِ والسلوكِ، ولكنَّ رديءَ الأخلاقِ ينبغي الانخلاعُ منه، وكريمَ الأخلاقِ ينبغي التحلِّي بشيءٍ منه.

فهذا هو مقصُودُنا بصحبةِ من يَحسنُ منكَ في خَصلةٍ - كالشجاعةِ أو الكرمِ أو الأدبِ - لا لتكونَ مثلَهُ، بلْ لتعلَمَ قدْرَ النقصانِ عندَكَ وتتزوَّدَ مما ينقصُكَ إن كانَ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطريقةُ الثّامِنَةُ في مَعْرِفَةِ النَّفْسِ

أنْ تُفتِّشَ عَنْ صِفةٍ ما

وتبحَثَ في نَفْسِكَ عَنْهَا

وقَدِ استوْعَبَ أهلُ الأخلاقِ - كالغزاليِّ في الإحياءِ - الكلامَ عَنِ الأخلاقِ والأمراضِ وعلاماتِها، وعلاجِها إنْ كانَتْ مذمومةً، فتبحثُ عَن العلاماتِ وتراقبُ نفسَك تفتيشًا عَن كلِّ صفةٍ أو خلُقٍ تكلَّمُوا عنه.

ولمَّا كانَ استيعابُ الأخلاقِ والصفاتِ يخرجُ بنَا عَنِ المقصودِ، فسنكتفِي هُنَا بمثالٍ تستدلُّ بهِ على ما سِوَاه، فتتخذُه مقياسًا لك تنسجُ على منوالِه، ولْنمُهِّد قبلَ ذلك بتمهيدٍ بسيطٍ:

فللإنسانِ مجموعةٌ من الصفاتِ تُشَكِّلُ أخلاقَه، تتفاوَتُ نسبتُها، وتَرجِعُ إلى أصولٍ كلّيّةٍ.

فقدْ ترَى إنسانًا كريمًا، شجاعًا، رقيقَ القلبِ، شديدَ الشكِّ، مُحِبًّا للجاهِ، جمَّ الأدبِ، وهكذا تتعددُ الصفاتُ وتكثُرُ. ومِنَ العسيرِ أن تجدَ إنسانًا ينحصرُ في صفةٍ أو صفتينِ، بلْ ما يحصرُه الناسُ في ذلك إلا لقصورِ إدراكِهم أو شدةِ عنايتِهم بهذهِ الصفاتِ دونَ غيرِها أو جهلِهم بوجودِ غيرِها.

نعمْ، قد تبْرُزُ صفةٌ على سائرِ الصفاتِ حتى يُنسَبَ صاحبُها إليها، كشجاعةِ سيدِنا عليٍّ، وحَزْمِ سيدِنا عُمَرَ، وكَرَمِ حاتمِ الطائيِّ، ولكنَّ وجودَ صفةٍ قويةٍ بارزةٍ لا يعنِي عدمَ ما سواها، كمَا أنَّ اهتمامَ الناسِ بصفةٍ لا يَمْحُو ما عداهَا.

ألا ترى الناسَ يهتمُّون في المرأةِ بحيائِها وفي الرجلِ بتديُّنه؟ ولن أُحَدِّثَك الآنَ عن اختزالِ المعاني، فيكونَ الحياءُ هو خفضَ الصوتِ، والتديُّنُ هو كثْرةَ الصلاةِ، فهذا حديثٌ آخَرُ، لكنْ هل التديُّنُ - وهو الحرصُ على الدِّينِ - يَنفي صفاتِ الإنسانِ من كرمٍ وشجاعةٍ ونخوةٍ!

هكذا ينحصرُ تصوُّرُنا في صفاتِ الإنسانِ في مساحةٍ ضيقةٍ من الصفاتِ، ثُم نَحصرُ تصورَنا لهذه الصفاتِ في مساحةٍ أضْيَقَ، فلمْ نزلْ نختزلُ الإنسانَ حتى صِرْنا نُعَرِّفُه بفعلِه أو مالِه!

فالإنسانُ إذًا هو مجموعةُ صفاتٍ وأخلاقٍ، وهذه الأخلاقُ على تشعُّبِها وتنوُّعِها ترجعُ إلى أصولٍ كليةٍ اهتمَّ بها الفلاسفةُ قديمًا وأهلُ التزكيةِ في الإسلامِ بعدَهم، واختلفَتْ مذاهبُهم وتقاسيمُهم، ولعلَّ أشهرَها أنْ يجعلُوا ما يرجعُ إلى القُوَى الغضبيةِ قسمًا، وما يرجعُ إلى القُوَى الشهوانيةِ قسمًا، وما يرجعُ إلى العقلِ والمعرفةِ قسمًا، وما يرجعُ إلى العدلِ والمحبةِ قسمًا، ثم يُدرِجُون تحتَ

هذه الأقسامِ الأربعةِ سائرَ الصفاتِ من شجاعةٍ، وتهورٍ، وعفّةٍ، وحياءٍ، وعلمٍ، ومحبةٍ، وليسَ غرضُنا هنا الاستيعابَ، بل التنبيهُ على تعدُّدِ الصفاتِ وانقسامِها.

فإذا عرَفْتَ كثرتَها وتشَعُّبَها، فخذْ صفةً ما - كالعفّةِ - وابحثْ عن صُوَرِها في نفسِك، وانظرْ متى تقتربُ من هَتْكِها، ومتى يتعاظَمُ عندَكَ قدْرُها.

ثمَّ فَتِّشْ عَنْ أسبابِ ضعْفِها، أَهُوَ طُولُ إهمالٍ للنفسِ أم غلبةُ الشهوةِ وضعفُ الإرادةِ؟

وما زلتَ تبحَثُ في فروعِ الوصفِ في تشعُّبِه، وتبحثُ عن أصولِه في تجذُّرِه، حتى تقفَ على أصلِ الداءِ - إن كان موجودًا - وتتبعُ مواطنَ الخللِ - إن ظَهرَ لكَ - بالعلاجِ والحسمِ.

فإن فرَغْتَ مِن تتبُّعِ صفةٍ، انتقلْتَ إلى غيرِها، وابتدَأْتَ بالأصولِ، فرُبَّ خُلُقٍ كان كالعَرَضِ لخُلُقٍ آخَرَ، فرُبَّ شجاعٍ شجاعتُه مِن فَرْطِ غضبِه، وغضبُه مِن فَرْطِ أَنَفَتِه وكِبْرِه، وكِبْرُه مِن حُبِّه لنفسِه، وحبُّه لنفسِه فرعٌ مِن غُرورِه، فيكونُ الانشغالُ بخلُقِ الغرورِ ومعالجتُه أولَى مِن معالجَةِ الغضبِ، فإنَّ حَسْمَ أصلِ الداءِ أَوْلَى مِن علاجِ العَرَضِ.

ولا تحرِصْ على أن تُراقبَها في كلِّ الصفاتِ مرةً واحدةً، فهذا مما يُشتِّت البالَ ويمنعُ الرؤيةَ، بل يكفي أن تراقبَها صفةً صفةً، فلا تفرُغْ من مراقبةٍ في واحدةٍ إلا لتنظرَ في أخرى.

فمعَ مرورِ الأيامِ، تزدادُ صفاتُ نفسِك لكَ اتِّضَاحًا، وتزدادُ صورةُ الأخلاقِ في قلبِكَ ارتسامًا، فتَقوَى معرفتُك بنفسِك، ويتَّضِحُ لكَ مَن أنتَ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطريقَةُ التَّاسِعَةُ في مَعْرِفَةِ النَّفْسِ

أنْ تَصحبَ الكَامِلَ مِنَ الخَلْقِ

وذلك أنهُ أكمَلُ الخلقِ وأعدلُهم خُلُقًا، فكانَ الاقتداءُ به هو الأصلُ، وما عداهُ فروعٌ وظلالٌ.

وقد أخطأَ الناسُ في التأسِّي بالزُّهَّادِ بإطلاقٍ، أو بالتشبُّهِ بالصحابةِ - رِضوانُ اللهِ عليهِمْ - معَ الغفلةِ عَن الفوارقِ التي قدْ تُمَيِّزُ كلَّ واحدٍ منهُم مِن خُصوصِ حالٍ أو توفيقٍ إلهيٍّ في أمرٍ مَا، فَمَنْ أقبلَ على الدنيا ظانًّا أنه سيكونُ كسيدِنا عثمانَ رضيَ الله عنه في الجمعِ بينَ الغِنَى والزهدِ فقدْ أبعدَ الظنَّ بنفسِه، وستصرعُه الدنيا لا محالةَ، فيكونُ لها عبدًا، ومَن رَغِبَ في زُهْدٍ كزُهْدِ سيدِنا

أبي ذرٍّ الغِفَاريِّ رضي الله عنه نفرَتْ نفسُه وعجَزَتْ عَن الاستمرارِ على هذا النهجِ.

وليسَ هذا بعيبٍ في هؤلاء السادةِ، بلْ غايةُ الأمرِ أنَّ لَهُم خصوصَ أحوالٍ، وتوفيقاتٍ إلهيةً لا تحصُلُ إلا للآحادِ.

أما النبيُّ فقدِ اختارَ مِن الأمورِ ما لا يَشِقُّ على أمتِه الاقتداءُ بهِ مِن أمورِ الزهدِ والتمتُّعِ بالمباحِ؛ فلَمْ يتوسَّعْ في الأخيرِ توسُّعًا يُغرِي ضِعافَ النُّفُوسِ بالتكالُبِ على الدنيا، ولَمْ يترُكِ الدُّنيا تَرْكًا يَعجزُ عَن الاقتداءِ به عامّةُ الخلقِ.

وقُلْ مثلَ ذلكَ في سائرِ صفاتِه الشريفةِ وأخلاقِه الكريمةِ.

فإنْ أردْتَ مثالًا لا يَحِيدُ ومعيارًا لا يَغِشُّكَ؛ فاقرأْ في أوصافِه وأخلاقِه الشريفةِ، ككتابِ الشفَا للقاضِي عِيَاض، والشمائلِ المُحَمَّدِيَّةِ للإمامِ الترمذيِّ، ووسائلِ الوصولِ للشيخِ النبهانيِّ - رحمهُم اللهُ - وما ذكرَهُ الغزالِيُّ في الإحياءِ في كتابِ الزُّهْدِ، وفي الكلامِ عنْ أخلاقِ النبوةِ. وطالِعْ في سيرتِه الشريفةِ، وانظُر إلى مواقِفه التي سجَّلَها القرآنُ الكريمُ وحكَاها العلماءُ، ثُمَّ زِنْ نفسَكَ بميزانِ المتابعةِ والاقتداءِ والتشبُّهِ، تَظهَرْ لك نفسُك، وتقِفْ على عيبِك.

وهذه الطريقةُ تشبِهُ ما ذَكَرْنا مِن صحبتِكَ لمن يحسُنُ منْكَ في خَصلةٍ؛ إلّا أنَّنا هناكَ اعتمدْنَا على معرفتِكَ بالفضائلِ وبحثِك عنهَا، وهنا يكفيكَ صحبتُه لتعرفَ الفضائلَ كلَّها.

هُنَا الصُّحبةُ مُدارَسةٌ وهناكَ مُجالَسةٌ، هُنَا شمولٌ وهناك خصوصٌ.

وبالجملةِ، فكلما قَوَّيْتَ صُحبتَكَ للنبيِّ في سُنَّتِه وسيرتِه، انعكسَ منها - لا محالةَ - شيءٌ على نفسِك، واستفدْتَ من أنوارِها ما يُضيءُ لكَ طريقَ معرفةِ نفسِك. هذا بصُحبتِه علَى تباعُدِ القرونِ، فكيفَ بِمَنْ صَحِبُوه مشاهدةً بالقلوبِ والعُيونِ!

وهنا مَزلَقٌ مهمٌ ينبغي أن تتجنبَ الوقوعَ فيه.

فالتأسِّي ليس أنْ تكونَ نُسخةً مُكرّرةً مِن المُتَأسَّى به، فذلك سيوقِعكَ في التقليدِ الأعْمَى الذي يضرُّ نفسَكَ ويهدِمُ خصُوصِيةَ تفرّدِكَ وخصُوصِيةَ مشاكِلَكَ، بلِ التأسِّي أن تفهمَ الكمالات والمبادئَ التي تحكمُ سلوكَ المُتأسَّى به، كَي تُشارِكَهُ في التخلّقِ بها وتُحاولَ اكتسابَ القَدْرِ المتاحِ لكَ منها، لا أن تفعل مثلَها كمَنْ يقِفُ أمَامَ مِرآةٍ فتُحَاكِي فِعلَهُ، فلَسْتَ بالضرورةِ تُطيقُ النومَ على مَرْتَبةٍ مِنَ اللِّيفِ أو على الأرضِ، ولكِنْ قد يُمكِنُكَ ألَّا تُبالِغَ في شِراءِ المراتبِ الوَثِيرَةِ التي تجعلُكَ تُحِبُّ النومَ كثيرًا، وأنْ تجتهِدَ في استغلالِ وقتِكَ لِيَقِلَّ نَومُكَ الكثيرُ.

ُ

فالأسْوةُ تكونُ في المعنى قبلَ الصورةِ، والمعْنَى يتفاوتُ قوةً وضَعفًا بحسَبِ طاقةِ الإنسانِ واستعدادِهِ، فلا تَطْلُب أن ترْفَعَ الأثقالَ الكِبارَ وأنتَ تعجَزُ عَنْ حمْلِ خفِيفِهَا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطريقةُ العَاشِرَةُ في مَعْرِفَةِ النَّفْسِ

أنْ تتأمَّل الخَلْقَ وتَتفرَّسَ في سِيَرِهِم

وهذه طريقةُ أهلِ السِّيَرِ والقراءةِ والنظَرِ؛ أنْ تقرأَ في قصصِ الصالحينَ والطالِحِينَ، وتتأمَّلَ في سِيَرِهِمْ وتقلُّباتِ الأيامِ بهِمْ، فتنظرَ في حالِ مَن طَغَى: ما سِرُّ طُغْيَانِه؟ وفي حَالِ مَن تابَ ما سبَبُ توبتِه؟ وكيفَ تبدَّلَتْ حالُهُ؟

وقد حكَى القرآنُ الكريمُ لنا مِن سِيَر فرعونَ وقارونَ، وصاحبِ الجنَّةِ، وغيرِهِم مِن أصحابِ الشرورِ أو السفَهِ ما تحصُلُ بِه الموعظةُ والانتباهُ، كمَا حكى لَنَا مِن صبرِ الأنبياءِ والصالحينَ مَا تَطْمَئِنُّ به النفوسُ.

وصحبةُ الخَلْقِ على اختلافِ أنماطِهم وتبايُنِ طَرَائِقِهم، تجعلُكَ أكثرَ تأمُّلًا فِي النفسِ الإنسانيةِ، وأكثرَ انتباهًا لتبايُنِ طباَعِها وتداَخُلِ أخْلاقِها، فلَا الصالحُ صالحًا دومًا، ولا المسيءُ مسيئًا أبدًا!

كلما رحَلْتَ في عالمِ الإنسانِ، تكشَّفَتْ لكَ النفسُ أكثرَ فأكثرَ. والنفوسُ تتشابهُ في أصولِها. فكُلَّمَا أوغلْتَ في معرفةِ الإنسانِ، زادَتْ خبرتُكَ بنفسِكَ، وأخَذْتَ مِن فَهْمِكَ للناسِ معيارًا لكَ تستضيءُ بهِ في رحلتِك.

منذُ سنواتٍ انشغلْتُ بقراءةِ قصصِ الفنانينَ وسِيَرِهِم الذاتيةِ، هذهِ الطائفةُ التي اعتدْنَا أنْ نشعُرَ بأنهُم من عالَمٍ غيرِ عالمِنا، معَ الوقتِ رأيتُ تشابُهًا بينَنا، واشْتِرَاكًا فِي ضعفِنا البشريِّ، فقطْ اختلفَتْ صُوَرُهُ ودرجتُه.

ومزيّةُ رؤيةِ مَن يختلفُ عنكَ تمامَ الاختلافِ أنكَ تقرَؤُهُ بغيرِ نمطِك المعتادِ، فتتكشَّفُ لك معانٍ لا تراها عادةً - رَغْمَ وُجُودِها - فِيمَنْ يُشبِهُكَ.

فمثلًا: كثيرٌ مِنِ الناسِ إنْ سافرُوا إلى بلدٍ آخَرَ راحُوا يَحْكُونَ ما شاهدُوهُ مِن أخلاقِ أهلِ البَلَدِ الجديدِ، ويَصِفُونَ ما وجدُوهُ مِن عاداتِهم، ومِنَ العَجِيبِ أنكَ قدْ تجدُ في بلدِهم الأصليِّ نفسَ الصفاتِ أو العاداتِ، ولكنهُم لطولِ إلْفِهم لهَا واعتيادِ نظرِهم مشاهدَتَها لَمْ يعودُوا يَرَوْنَها! الأمرُ أشبَهُ بِمَنْ يَنبهِرُ بأحدِ آثارِ روما القديمةِ، ولا ينتبهُ لآثارِ المماليكِ في بلدِه، لا أعني الحديثَ عن عُقدةِ الأجنبيِّ، بلْ في حقيقةِ الأمرِ اعتيادُ الشيءِ وإلفُه تُصِيبُكَ بالغفلةِ عَن رؤيتِه.

لذا فعندَما نقرأ في سيرةِ مَن يُشبِهُونَنا تكونُ استفادتُنا أقلّ، فإنْ قرَأنَا في سيرةِ أناسٍ أبعدَ عنَّا طبعًا وخُلُقًا - أوْ هكذا نَظُنُّ - تَبَدَّتْ لنَا ملامِحُ أخرَى في الإنسانِ. والإنسانُ - كما قُلْنَا - يتشابهُ في إنسانيتِه.

والنفسُ الإنسانيةُ تُشْبِهُ الأثرَ الذي تتأملُه، فتشاهِدُ نقوشَهُ وتتعرَّفُ على أحجارِه وشقوقِه وألوانِه. فكُلَّمَا حَدَّقْتَ البصرَ؛ زادت به بصيرتُكَ.

فالإنسانُ يزدادُ فَهْمًا لنفسِه إنِ ازدادَ فَهْمُهُ لِمَنْ حولَهُ. وآفَتُنا أنَّنا اعتَدْنَا أنْ نتعامَلَ معَ الإنْسَانِ في حُدُودِ أفعالِهِ، ولَمْ نعتَدْ أنْ ننظُرَ في أعْمَاقِ نفسِه، فنبحثَ عَن العللِ والأسبابِ، ونتأمَّلَه في تداخُلِ مشاعرِه وتَرَكُّبِ أفكارِه.

فرحلةُ الإنسانِ في عالَمِ الإنسانِ هي بدايةُ استماعِه لأحاديثِ النفوسِ، وحينَ نستمِعُ نُبصِر غيْرَنا بوضوحٍ، وبقَدْرِ رؤيتِنا لغيرِنا تَظهرُ لنا نفوسُنَا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القِسمُ الثَّاني

حديثُ النَّفْسِ

نَفْسِيَ الَّتِي رَأَيْتُهَا

إنَّها كإنسانٍ آخَرَ بداخِلِكَ، يُحَدِّثُكَ بِصَوْتٍ لا تَسمعُهُ بأذُنِكَ، وتَجِدُهُ في قلبِك.

لَوْ قُلْتُ إنَّهَا حقيقةً هِيَ أنَا لَمَا أبعدْتُ، فكأنَّ البدنَ آلتُها، واللحمَ والشحمَ وعاؤُها.

محلُّ الأحزانِ والشهواتِ، والسعادةِ والألمِ.

تكتسبُ علمًا فتجدُها تحملُكَ على حماقاتِ التكبُّرِ كطفلٍ يزهُو بألعابِه أمامَ أقرانِه.

وتَشْعُرُ بجهلِها فتصمُتُ وتَتَواضعُ.

ليس التكبرُ ولا حبُّ الظهورِ ولا التواضعُ هو أصلُها، بل هذهِ أشبهُ ما يكونُ بأفعالِها، كأنَّها تُشبِهُ الوَتَرَ الذي يهتزُّ فيُصدِرُ صوتًا، وعلى قدرِ هزتِه وسماكتِه تكونُ هيئةُ صوتِه.

فيطرأُ عليهَا العملُ والعلمُ، والحُبُّ والكُرهُ، والمَدحُ والسَبُّ، فتجدُها تهتَزُّ لكلِّ هذا، فينشأُ عنهَا أفعالٌ شتَّى!

تارةً تغضَبُ وتارةً تشتهي، تارةً تفخَرُ وتَزْهُو وتارةً تنكسِرُ وتنزوِي، فكأنَّ أفعالَها ظِلالٌ لِما فيها، وكأنَّ وارداتِ الحياةِ شمسٌ تُسْقِطُ عليهَا شعاعَها فتعكسُ لك الظِّلالَ، فبها تعرِفُ الموجودَ.

تَشَمُّ رائحةَ الطعامِ فتُحرّكُ فيكَ شهوةَ البَطْنِ، فلَا تدرِي أيُّهما أسبَقُ؛ حاسةُ الشَّمِّ أم شهوةُ البطنِ؟ فتتوهَّمُ أنَّ نفسَكَ شهوتُكَ، وإنَّما الشهوةُ فِعْلُها!

والشهوةُ رُبَّمَا أثارَتْ أُخْتَها، فكانَتِ الشهَواتُ أفعالًا وأسبابًا.

ربَّما حَرَّكَتْها الفكرةُ، فأثارَتْ شَرِيفَ معنًى أو أراقتْ عزيزَ دمعٍ، فالفكرةُ كرائحةِ الطعامِ، تثيرُ الكامنَ، وحركةُ النفسِ انفعالُها.

ثُم الفكرةُ تَدْعُو أختَها، فتزدادُ الأفكارُ اجتماعًا وتكاثُرًا، حتَّى يقطعَها قاطِعٌ آخَرُ مِن فكرةٍ تُضادُّها، أو شهوةٍ تُشَتِّتُ جمْعَها، أو غفلةٍ تَفُضُّ مجالسَها.

وهكذا دومًا، تُحَدِّثُكَ وتُحَدِّثُهَا، تُثيرُها أشياءُ وتَحبِسُها أشياءُ، وكأنَّها ظِلٌّ يتراقصُ جهةَ اليمينِ والشِّمالِ حسبَما يرِدُ عليهِ مِنَ الجهاتِ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مَنْ أَنَا؟

أَجِدُنِي في يومٍ كطفلٍ ينتظرُ هديةً مِن أبيهِ، ينتظرُ تشجيعَ أصحابِه ليَشْعُرَ بفخرٍ عارض، وفي يومٍ أجِدُنِي ذلكَ الخَجُولَ الذِي يخجَلُ مِن أدنَى مديحٍ، يَتَلَعْثَمُ عندَمَا يشعُرُ بالمودَّةِ الصادقةِ والحبِّ المخلِصِ حتَّى تختلِطَ الكلماتُ، ويتكلَّمَ بالهذيانِ، فتَتُوهَ الكلماتُ، وتتقطَّعَ الجُمَلُ.

بالأمسِ طائعٌ مُقْبِلٌ علَى العبادةِ، عازفٌ عَن زينةِ الدنيَا، تكفينِي تَمَراتٌ وشَرْبةُ ماءٍ، وغدًا أُسافِرُ معَ الأصدقاءِ لنأكُلَ ما لَذَّ مِنَ الطَّعامِ، ونشترِيَ الملابِسَ الحسنةَ، ونستمتِعَ بالطبيعةِ.

وَصُولٌ للرَّحِمِ، وَدُودٌ معَ الأصدقاءِ، ثُمَّ مُنْقَبِضٌ مُتَوارٍ عَنِ الأنظارِ يُؤْثِرُ الوَحْدَةَ.

قد يقولُ لكَ أحَدُهُم: هذَا تناقُضٌ!

ويقولُ لكَ آخَرُ بعدَ تأمُّلٍ: هكذَا الإنسانُ مَجْمَعُ المتناقِضَاتِ، طائعٌ وعاصٍ، مُقبِلٌ ومُدْبِرٌ، فبالأمسِ في حالٍ واليومَ في حالٍ.

ورُبَّما أساءَ بكَ الظنَّ أحدُهُم فيقولُ: متقلبٌ لا ثباتَ له على لَوْنٍ.

وَرُبَّمَا أبعدَ أحدُهُم فقالَ: لو صَدَقْتَ في الخيرِ لَمَا أَصَبْتَ الشرَّ، ولكنَّها أمراضُ النفوسِ تُمَحِّصُها الأيامُ، وتُظْهِرُهَا تقلُّبَاتُ الأحوالِ.

ولستُ أُنكِرُ كُلَّ هذا أو بَعْضَهُ، رُبَّما صدَقَ وربَّما أبْعَدَ، لكني أرَى تناقُضَ النفسِ اتِّساقَها، ودليلَ صِدْقِها!

تتصارَعُ المعانِي فتظهَرُ التناقضاتُ، وتحمِلُنا قوةٌ معنًى على مُخالَفةِ طبْعٍ، فَلا يفهَمُ أحدٌ مَنْ أنْتَ؟

أُحِبُّ أصدقائي ولكنِّي أُؤثِرَ الوَحْدَةَ، وأشتاقُ لهُم، ويُرهِقُنِي طولُ الكلامِ وكثرةُ الزحامِ!

فإنِ اشتدَّ الشوقُ خرَجْنَا مِن عُزْلَتِنا لِلُقْيَاهُم، فإنِ التقيْنا اشتدَّتْ وطأةُ الزحامِ، وأنهَكَ النفْسَ طولُ الكلامِ، ففرَّتْ لعزلتِها وعَادَتْ أدْرَاجَهَا.

فمِنْ تَصَارُعِ الشوقِ معَ الطبعِ يَنْشَأُ التناقُضُ؛ ظهورٌ واختفاءٌ، إقبالٌ وإدبارٌ؛ فتحسَبُه تَقَلُّبًا وهُوَ تصارُعٌ!

فإنْ قلْتَ: وكيفَ يجتمِعُ حبُّ إنسانٍ معَ التعَبِ مِن طُولِ مجلسِه؟ وهل الحُبُّ إلَّا أُنْسٌ بالمحبوبِ حتَّى يَمُرَّ الوَقْتُ كخيالِ الطيْفِ، ولا تَفِيَ الأوقاتُ بِبَوْحِ المشاعرِ!

قلْتُ: هذا فِيمَنْ لا يتصارَعُ فيهِ الطبْعَانِ ولا يَتَجَاذَبُهُ الحُبَّانِ، حُبَّ العزلةِ وحُبَّ الصديقِ.

وهذا فِيمَنْ لا يتصارعُ فيهِ حبُّ اللقاءِ معَ قلَّةِ الكلامِ.

فما تراهُ تناقُضًا في السُّلُوكِ هو مَعَانٍ تصارَعَتْ وتقاتَلَتْ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هلْ نَحْنُ كَمَا نَظْهَرُ؟

مَا أكثرَ مَا يكونُ الكلامُ خادِعًا؛ نتكلَّمُ بما لا نعنِي، ونُظهِرُ ما لا نريدُ!

ليسَ عَنْ ضعفِ البيانِ أتكَلَّمُ، بلْ عَنْ ستائِرِ الخوفِ التي نُسْدِلُها علَى مشاعرِنا الحقيقيةِ.

يخافُ الأبُ على ابنِه مِن كلِّ سُوءٍ، فيخترعُ عشَراتِ القواعدِ ممَّا يظنُّ أنها تَحْمِيه: لا تتأخَّرْ، لا تصحَبْ فلانًا، لا تلبَسْ كذَا.. إلخ.

يَقُولُونَ: «إِنَّ الشَّفِيقَ بِسُوءِ الظَّنِّ مُولَعٌ»، وَالْمَعْنَى أَنَّ مَنْ زَادَتْ مَحَبَّتُهُ زَادَتْ شَفَقَتُهُ، وَمَنْ زَادَتْ شَفَقَتُهُ دَائِمًا يَفْتَرِضُ أَسْوَأَ الِاحْتِمَالَاتِ، فَالتَّأْخِيرُ لَعَلَّهُ لِحَادِثٍ وَقَعَ، وَعَدَمُ الرَّدِّ مِنَ الْمَحْبُوبِ لَعَلَّهُ لِتَغَيُّرِ الْقَلْبِ، وَالتَّأَلُّمُ لَعَلَّهُ لِمَرَضٍ شَدِيدٍ!

وَكَأَنَّ الْحُبَّ يَقْتَرِنُ بِخَوْفِ الْفَقْدِ، وَلَكِنَّ خَوْفَ الْفَقْدِ هَذَا يَسْتَتِرُ فِي أَعْمَاقِ النَّفْسِ؛ فَلَا يَظْهَرُ إِلَّا فِي لَحَظَاتِ تَغَيُّرِ الْعَادَةِ!

وَكَأَنَّ الْعَادَةَ تُعْطِينَا أَمَانًا زَائِفًا بِالْبَقَاءِ، كَأَنَّ مَا كَانَ هُنَا بِالْأَمْسِ وَالْيَوْمَ سَيَظَلُّ هُنَا غَدًا!

فَإِنْ تَأَخَّرَ الِابْنُ عَنْ مَوْعِدِهِ الْمُعْتَادِ، فَقَدْ تَغَيَّرَتِ الْعَادَةُ؛ فَيَنْكَشِفُ الْخَوْفُ الْمَجْهُولُ وَتَظْهَرُ الْمَخَاوِفُ الْحَبِيسَةُ الَّتِي تَوَارَتْ فِي جَوَانِبِ الْقَلْبِ.

وَلَكِنْ، أَتُرَاهَا تَظْهَرُ فِي صُورَتِهَا الْحَقِيقِيَّةِ، أَمْ تَظْهَرُ مُسْتَتِرَةً بِلِبَاسِ الْمَنْطِقِ، أَوْ بِاسْمٍ مُسْتَعَارٍ؟

سَتَجِدُ - فِي مِثَالِنَا هَذَا - الْأُمَّ الَّتِي جَزِعَتْ لِتَأَخُّرِ ابْنِهَا، تُجَادِلُهُ فِي خَطَرِ التَّأَخُّرِ لَيْلًا، أَوْ تُجَادِلُهُ فِي وُجُوبِ طَاعَةِ الْوَالِدَيْنِ. إِنَّهَا لَنْ تُخْبِرَهُ بِحَقِيقَةِ مَا تَشْعُرُ بِهِ، لَنْ تُخْبِرَهُ بِأَنَّهَا تَأْنَسُ لِوُجُودِهِ وَتَطْمَئِنُّ مَا دَامَتْ تَرَاهُ، رُبَّمَا هِيَ لَا تُدْرِكُ ذَلِكَ أَصْلًا، بَلْ تُدْرِكُ فَقَطْ غَضَبَهَا لِتَأَخُّرِهِ، أَوْ سُخْطَهَا مِنْ تَبَرُّمِهِ.

وَهَكَذَا نَسْتَتِرُ فِي طَبَقَاتٍ مِنَ الْمَعَانِي الزَّائِفَةِ الَّتِي تَسْتُرُ مَشَاعِرَنَا الْحَقِيقِيَّةَ وَمَخَاوِفَنَا الَّتِي نَجْهَلُ وُجُودَهَا، أَوْ نَنْسَاهُ.

كُنْتُ أَعْلَمُ طِيبَةَ صَدِيقِي وَنَقَاءَ قَلْبِهِ بِيَقِينٍ، وَلَكِنِّي وَجَدْتُهُ يَتَكَالَبُ عَلَى الدُّنْيَا، يَحْرِصُ عَلَى رُكُوبِ السَّيَّارَاتِ الْفَارِهَةِ الَّتِي يَعْجَزُ عَنْ ثَمَنِهَا، وَيَسْكُنُ فِي الْأَمَاكِنِ الرَّاقِيَةِ، لَمْ أَعُدْ أَرَاهُ إِلَّا مَهْمُومًا بِجَمْعِ الْمَالِ أَوِ النَّجَاحِ فِي عَمَلِهِ، مَعَ أَنِّي أَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّهُ لَيْسَ شَرِهًا لِجَمْعِ الْمَالِ، وَلَا بَخِيلًا أَوْ طَمَّاعًا!

الْأَمْرُ بَدَا لِي فِي وُضُوحٍ شَدِيدٍ؛ إِنَّهُ خَوْفُهُ مِنْ مَاضِيهِ الْأَلِيمِ، حَيْثُ الْفَقْرُ وَالْحِرْمَانُ، يَخْشَى عَلَى أَطْفَالِهِ أَنْ يَذُوقُوا مَا ذَاقَهُ، وَيَخْشَى عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَعُودَ فَيَتَأَلَّمَ مِنَ الْفَقْدِ كَمَا كَانَ!

قُلْتُ لَهُ: إِنَّكَ تَفْقِدُ رُوحَكَ وَتَغْتَرِبُ عَنْهَا، فَمَا سَتَفْقِدُهُ أَعَزُّ مِمَّا تَخْشَاهُ! وَلَكِنْ تَشَعَّبَ الْحَدِيثُ فِي الدُّنْيَا، وَالزُّهْدِ، وَالْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ، وَعَشَرَاتِ الْمَوْضُوعَاتِ الَّتِي لَا تَمَسُّ الْأَمْرَ بِعَيْنِهِ، أَعْنِي خَوْفَهُ مِنَ الْفَقْرِ وَأَلَمَهُ. فَبَدَلًا مِنْ أَنْ نَعْتَرِفَ بِضَعْفِنَا، رَاحَتِ النَّفْسُ تَنْسِجُ خُيُوطًا مِنَ الْفَلْسَفَةِ، وَتَسْتَنْهِضُ الْعَقْلَ؛ لِيَأْخُذَ الْقَضِيَّةَ مِنْ مَوْضِعِهَا لِمَسَارٍ آخَرَ، وَيَسْتَحْضِرَ مَا يَعْرِفُ مِنْ قَضَايَا؛ لِيُشَغِّبَ فِي الْجَدَلِ. ثُمَّ مَاذَا؟ نَصْطَلِحُ مَعَ التَّبْرِيرِ الْجَدِيدِ الَّذِي قَدَّمَتْهُ لَنَا عُقُولُنَا، وَنَظْهَرُ لِلنَّاسِ بِهَذَا الْمَظْهَرِ، وَيَبْدَأُ النَّاسُ يَتَعَامَلُونَ مَعَنَا عَلَى مَا ظَهَرَ لَهُمْ، فَنُصَدِّقُ أَنْفُسَنَا أَكْثَرَ، وَنَطْمَئِنُّ لِحَالِنَا أَكْثَرَ، وَنَكْتَسِبُ عَادَاتٍ أَرْسَخَ، حَتَّى يَعْسُرَ عَلَيْنَا أَنْ نُفَارِقَ نَمَطَ حَيَاتِنَا الْجَدِيدَ الَّذِي أَلِفْنَاهُ، رغمَ أَنَّنَا نَعِيشُ فِي جِلْدِ غَيْرِنَا، وَنُمَارِسُ عَادَاتٍ لَا تَتَّسِقُ مَعَ أَرْوَاحِنَا.

قُلْ مِثْلَ هَذَا عَلَى مَنْ صَحِبَ مَنْ لَا يَتَوَافَقُ مَعَ طَبْعِهِ؛ أَنَفَةً مِنْ صُحْبَةِ مَنْ يَسْخَرُ مِنْهُ النَّاسُ، أَوْ يُعْرِضُونَ عَنْهُ، وَكَأَنَّهُ يَصْحَبُ الْأَقْوَى مَظْهَرًا؛ لِيَكُونَ فِي صَفِّ الرَّامِي، لَا لِيَكُونَ مَعَ الْمَرْمِيِّ.

كَأَنْ يَكُونَ صَدِيقُكَ الْقَرِيبُ رَثَّ الثِّيَابِ، أَوْ لَا يُحْسِنُ الْكَلَامَ، أَوْ مَحْدُودَ الذَّوْقِ؛ فَيَسْخَرُ أَصْدِقَاؤُكَ مِنْهُ، فَتَبْدَأُ فِي هَجْرِ الْأَقْرَبِ إِلَيْكَ، وَتَصْحَبُ السَّاخِرِينَ، بالرغمَ مِنْ بُعْدِ طِبَاعِهِمْ عَنْكَ، كَأَنَّكَ تَخْشَى أَنْ تُنْسَبَ لِصَاحِبِكَ؛ فَيَلْحَقَكَ الْعَارُ مِنْ لِسَانِهِمْ.

إِنَّكَ تَسْتَشْعِرُ قُوَّةً فِي السَّاخِرِ تَجْعَلُكَ تَطْمَئِنُّ عِنْدَمَا يَكُونُ صَاحِبَكَ، وَالْأَمْرُ مُجَرَّدُ مِثَالٍ!

بَلْ قُلْ مِثْلَ هَذَا فِيمَنْ يَصْحَبُ الْأَغْنِيَاءَ لِحُسْنِ مَظْهَرِهِمْ؛ أَنَفَةً مِنْ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى الْفَقْرِ، أَوْ شُعُورًا بِقُوَّةٍ زَائِفَةٍ وَهُوَ مَعَهُمْ، وَكَمَنْ يَصْحَبُ الْمُفَكِّرِينَ؛ أَنَفَةً مِنْ أَنْ يَكُونَ مَعَ بُسَطَاءِ الْعَقْلِ الَّذِينَ يَحْتَقِرُهُمْ أَهْلُ الرَّأْيِ وَالْفِكْرِ.

تَطُولُ الْقَائِمَةُ، مِنْ صُحْبَةٍ زَائِفَةٍ، أَوْ سَعَادَةٍ مَوهومةٍ، أَوْ تَعَلُّقٍ بِمَا لَيْسَ بِحَقِيقَةٍ، وَكَأَنَّنَا صِرْنَا أَفْضَلَ مَنْ يُتْقِنُ الْفِرَارَ مِنْ نَفْسِهِ إِلَى الْأَوْهَامِ، وَأَحْسَنَ مَنْ يَخْلَعُ عَبَاءَةَ الصِّدْقِ بِشَوَاغِلَ كَاذِبَةٍ وَبِصُوَرٍ خَادِعَةٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فَرَاغُ الرُّوحِ

أَعْجَبُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ شَبَابِّ حَدِيثِ الْعَهْدِ بِالتَّدَيُّنِ، أَحِدُهُ يَحْرِصُ عَلَى نِسْبَةِ نَفْسِهِ لِفَرِيقٍ مِنَ الْفِرَقِ، أَوْ مَدْرَسَةٍ مِنَ الْمَدَارِسِ، وَهُوَ ابْنُ الْأَمْسِ، لَمْ تَكَدْ تَنْضَجُ لَهُ فَلْسَفَةٌ لِيَتَعَصَّبَ لَهَا، أَوْ يَتَحَيَّزَ لَهَا.

إِنِّي أَفْهَمُ أَنْ يَتَفَاعَلَ الْإِنْسَانُ مَعَ قَضِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ تَسْتَوْلِي عَلَى فِكْرِهِ، ويفْنَى فِيهَا عمُرُه، فَأَتَفَهَّمُ حِينَهَا إِنْ تَعَصَّبَ لِرَأْيِهِ، أَوْ تَشَدَّدَ فِي مَوْقِفِهِ، وَأَقُولُ فِي نَفْسِي: هَذَا رَجُلٌ طَالَتْ مُخَالَطَتُهُ لِلْفِكْرَةِ حَتَّى اسْتَوْلَتْ عَلَى نَفْسِهِ، فَكَانَتْ هُوَ، اتَّحَدَا مَعًا، وَامْتَزَجَا كَشَيْءٍ وَاحِدٍ، فَكَانَ فِي رَفْضِكَ لِفِكْرَتِهِ رَفْضٌ لَهُ، وَفِي انْتِقَاصِكَ لِقَضِيَّتِهِ ازْدِرَاءٌ لَهُ.

أَتَفَهَّمُ هَذَا، وَإِنْ كُنْتُ لَا أَرْضَاهُ، وَلَكِنَّهُ يَبْدُو لِي مَعْقُولًا وَمَفْهُومًا. وَلَكِنْ مَا لَا أَفْهَمُهُ: كَيْفَ يَتَعَصَّبُ حَدَثُ السِّنِّ لِقَضِيَّةٍ تَبَنَّاهَا بِالْأَمْسِ، وَقَدْ كَانَ قَبْلَهُ خَالِيًا مِنْ أَدْنَى فِكْرَةٍ عَنْهَا!

ظَنَنْتُ أَنَّ الْأَمْرَ خَاصٌّ بِالْقَضَايَا الدِّينِيَّةِ، ثُمَّ ظَهَرَ مَعَ الْوَقْتِ أَنَّ الْأَمْرَ عَيْنَهُ يَظْهَرُ وَيَتَكَرَّرُ فِي الْقَضَايَا السِّيَاسِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ، بَلْ فِي كُرَةِ الْقَدَمِ، وَحُبِّ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ!

وَمَا أَرَى إِلَّا أَنَّ الْإِنْسَانَ يَشْعُرُ أَحْيَانًا بِفُقْدَانِ الْقِيمَةِ مِنْ حَيَاتِهِ، فيَشْعُرُ بِأَنَّ الْحَيَاةَ لَا مَعْنَى لَهَا مَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ صِرَاعٌ تفْنَى فِيهِ الْأَوْقَاتُ، وَتُبْذَلُ فِيهِ الْمُهَجُ.

إِنَّهُ بَحْثٌ عَنْ قَضِيَّةٍ تُشْعِرُهُ بِوُجُودِهِ، فَمَا لَمْ أَتَكَلَّمْ، فَأَنَا لَا وُجُودَ لِي، لَا أَشْعُرُ بِذَاتِي مَا لَمْ أَخْتَلِفْ، وَكَأَنَّ الْخِلَافَ هُوَ الْمِرْآةُ الَّتِي نَرَى فِيهَا أَنْفُسَنَا وَنُظْهِرُ فِيهَا وُجُودَنَا!

وَالْأَمْرُ يَزْدَادُ غُمُوضًا فِي الدِّينِ، فَقَدْ تَغَذَّتْ مَشَاعِرُنَا بِمَعَانِي النِّضَالِ وَالْفِدَاءِ، نَسْمَعُ قَصَصَ الصَّحَابَةِ وبَذْلِهِمْ لِلَّهِ تَعَالَى، وَقَصَصَ الصَّالِحِينَ وتَفَانِيهِمْ، فَتَتَشَوَّقُ النَّفْسُ لِمَعْرَكَةٍ تَبْذُلُ فِيهَا الْعَزِيزَ وَالْغَالِيَ للهِ تَعَالَى.

نَشْعُرُ بِأَنَّ الْعِبَادَاتِ الْيَسِيرَةَ - مِنْ صَوْمٍ وَصَلَاةٍ - لَيْسَتْ بِكَافِيَةٍ لِنَكُونَ رَبَّانِيِّينَ، فَنَشْتَغِلُ بِقَضَايَا أَكْبَرَ، وَنَتَعَصَّبُ لَهَا لِنَكُونَ أَصْدَقَ!

وَلَا أُنْكِرُ أَنَّ الْقَضَايَا الْكُبْرَى مَوْجُودَةٌ، وَلَكِنِّي أُنْكِرُ أَنْ يَكُونَ تَحَمُّسُنَا لَهَا نَابِعًا مِنْ صِدْقٍ وَإِيمَانٍ حَقِيقِيٍ، بَلْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ يَكُونُ مِنْ فَرَاغِ الرُّوحِ، أَوِ الْبَحْثِ عَنِ امْتِلَاءِ النَّفْسِ.

وَآفَةُ النَّفْسِ الْكُبْرَى أَنَّهَا لَا تَقْنَعُ بِالْيَسِيرِ الصَّادِقِ، أَمَا تَرَى الكَثِيرَ مِنَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم كَانُوا يَتَفَاجَؤُونَ عِنْدَمَا يُخْبِرُهُمُ الرَّسُولُ بِأَنَّ فُلَانًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يَجِدُونَ عَمَلَهُ يَسِيرًا!

وَذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ اعْتَادَتْ أَنَّ الثِّمَارَ الْعَظِيمَةَ - كَالْجَنَّةِ - لَا تُنَالُ إِلَّا بِبَذْلٍ عَظِيمٍ، وَهَذَا صِدْقٌ، وَلَكِنْ، مَا أَكْثَرَ مَا يَقْبَلُ الْكَرِيمُ - سُبْحَانَهُ - قَلِيلَ الْعَمَلِ الصَّادِقِ، وَيَعْلُو بِهِ عَلَى آلَافِ الْأَعْمَالِ الْعَظِيمَةِ.

إِنِّي عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّ بَعْضَ الْأَذْكَارِ الصَّادِقَةِ مِنْ قَلْبِ أُمِّي - رَحِمَهَا اللهُ - تَرْبُو عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الدُّرُوسِ وَالْمُحَاضَرَاتِ الَّتِي سَعَيْتُ فِيهَا هُنَا وَهُنَاكَ، وَلَا يَخْلُو وَاحِدٌ مِنْهَا مِنْ حَظِّ نَفْسٍ أَوْ هَوًى خَفِيٍّ.

وَأَدُلُّكَ عَلَى صِدْقِ مَقَالَتِي تِلْكَ بِسُؤَالٍ بَسِيطٍ: مَاذَا أَفْعَلُ عِنْدَمَا أَخْلُو بِنَفْسِي، أَوْ تَتَعَطَّلُ دُرُوسِي لِمَرَضٍ أَوْ ظَرْفٍ مَا؟ إِنِّي فِي الْأَغْلَبِ أُؤْثِرُ الْبَطَالَةَ وَالرَّاحَةَ، وَلَوْ كَانَ حُبُّ اللَّهِ هُوَ الْمُحَرِّكَ الْأَعْظَمَ لِي، لَانْشَغَلْتُ بِبَابٍ آخَرَ مِنْ أَبْوَابِ الْخَيْرِ، فَالْكَرِيمُ - سُبْحَانَهُ - إِنْ أَغْلَقَ بَابًا، فَبَقِيَّةُ الْأَبْوَابِ مَفْتُوحَةٌ، إِنْ عَجَزْتَ عَنِ الْعَمَلِ الْخَيْرِيِّ فَأَيْنَ مِسْبَحَتُكَ وَسَجَّادَتُكَ؟! وَإِنْ عَجَزْتَ عَنِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ، فَأَيْنَ صِيَامُكَ وَقِيَامُكَ وَصِلَتُكَ لِلْأَرْحَامِ؟!

وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ أَنَّنَا لَا نَفْعَلُ إِلَّا مَا نُحِبُّ، ولسْنَا نَعْمَلُ وَنَجْتَهِدُ لِمَنْ نُحِبُّ!

لَوْ قَصَدْتَ زِيَارَةَ صَدِيقِكَ، فَاكْتَشَفْتَ أَنَّ سَيَّارَتَكَ مُعَطَّلَةٌ، فَإِنَّكَ سَتَتْرُكُهَا وَتَسْتَقِلُّ سَيَّارَةَ أُجْرَةٍ، أَوْ تَرْكَبُ بَعْضَ الْمُوَاصَلَاتِ، فَالْمَقْصُودُ مَا دَامَ ثَابِتًا، فَلَنْ تَتْرُكَهُ إِنْ فَقَدْتَ بَعْضَ الْوَسَائِلِ!

فَلَوْ كُنَّا نَطْلُبُ اللهَ حَقًّا، لَانْشَغَلْنَا بِهِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، لَا فِي أَوْقَاتِ الْفَرَاغِ فَقَطْ، وَلَا عِنْدَمَا يَأْتِي فَقَطْ مَا نُحِبُّهُ.

لِهَذَا السِّرِّ أَشْعُرُ بِأَنَّنَا دَوْمًا نَبْحَثُ عَنْ قَضَايَا كُبْرَى؛ لِنَشْعُرَ بِأَهَمِّيَّتِنَا، أَوْ لِنَشْعُرَ بِلَذَّةٍ مَا، وَلَوْ صَدَقْنَا فِي طَلَبِ الْآخِرَةِ لَكَانَ أَكْبَرُ هَمِّنَا هُوَ طَرْقَ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ بِصُنُوفٍ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ.

بَلْ قَدْ أَذْهَبُ إِلَى أَبْعَدَ مِنْ هَذَا فَأَقُولُ: إِنَّ بَحْثَ الْإِنْسَانِ عَنِ الْحُبِّ، وَتَوَسُّعَهُ فِي التَّعَلُّقِ بِالْآخَرِينَ، حَتَّى يَصِيرَ الْحُبُّ مُضَخَّمًا مُسْتَوْلِيًا عَلَى فِكْرِهِ، هُوَ نَوْعُ خَلَلٍ وَفَرَاغٍ رُوحِيٍّ، فَالْقَلْبُ الْفَارِغُ يَبْحَثُ عَمَّا يَشْغَلُهُ، فَإِنْ وَجَدَ شَيْئًا، ضَاعَفَ قَدْرَهُ وَضَخَّمَ حَجْمَهُ؛ لِيَنْتَفِخَ فَيَشْغَلَ الْفَرَاغَ.

وَلَسْتُ أُنْكِرُ صِدْقَ الْحُبِّ بَيْنَنَا كَبَشَرٍ، وَحَاجَتَنَا إِلَيْهِ، وَلَكِنِّي أَتَكَلَّمُ عَنْ هَذَا الِاخْتِلَالِ الَّذِي أَلْحَظُهُ فِي نِسَبِ الْأَشْيَاءِ، حَتَّى يَصِيرَ الْحُبُّ عِشْقًا وَجُنُونًا، وَتَصِيرَ التَّجْرِبَةُ الْعَاطِفِيَّةُ أَزْمَةً حَقِيقِيَّةً إِنْ فَشِلَتْ أَوْ تَعَثَّرَتْ.

فَالْقَلْبُ الْمُتَّزِنُ تَأْخُذُ فِيهِ الْأَشْيَاءُ قِيمَتَهَا الْحَقِيقِيَّةَ بِلَا زِيادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، وَتُسَمَّى فِيهِ الْأَشْيَاءُ بِأَسْمَائِهَا الْحَقِيقِيَّةِ، بِلَا تَضْخِيمٍ، وَلَا تَهْوِيلٍ.

فَقَطْ فَرَاغُ الرُّوحِ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ نِسَبَ الْأَشْيَاءِ تَخْتَلُّ، وَتَأْخُذُ الْأَشْيَاءُ أَسْمَاءَ غَيْرِها، فَنَحْيَا فِي عَالَمِ الْوَهْمِ، وَالْوَهْمُ يَتْبَعُهُ - لَا مَحَالَةَ - الْهَمُّ، عِنْدَمَا تُزَاحُ الْحُجُبُ وَتَتَكَشَّفُ الْحَقَائِقُ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بَعْدَ شُهُورٍ مِنْ كِتَابَةِ هَذَا الْكَلَامِ أَجِدُهُ يَشْتَدُّ وُضُوحًا فِي النَّفْسِ، لَا فِي مُجَرَّدِ مُلَاحَظَةِ تَبَنِّي النَّاسِ لِلْقَضَايَا الْوَهْمِيَّةِ، بَلْ حَتَّى فِي تَوَهُّمِ الصِّرَاعِ. فِي الشُّعُورِ الموهومِ بِأَنَّكَ تَسْعَى لِتَحْقِيقِ هَدَفٍ ضَخمٍ فِي الْحَيَاةِ، وَأَنَّ لَكَ رِسَالَةً عظيمةً تُؤَدِّيهَا، وَعَلَيْكَ أَلَّا تَعْبَأَ بِمَنْ يُعِيقُكَ عَنْهَا وكأَنَّ الكونَ يُصارعُك.

لَا أُنْكِرُ أَنَّ «وُجُودَ مَا يُفْعَلُ» مِنْ أَهَمِّ مَا يُعْطِي لِلْحَيَاةِ مَعْنًى، بَلْ لَعَلَّهُ قَشَّةُ الرُّوحِ فِي التَّمَسُّكِ بِهَذِهِ الْحَيَاةِ، لَا سِيَّمَا فِي لَحَظَاتِ الضَّعْفِ، وَعِنْدَمَا يَفْقِدُ الْإِنْسَانُ الشُّعُورَ بِأَنَّ هُنَاكَ مَا يُنْتَظَرُ أَنْ يَفْعَلَهُ، يَبْدَأُ شُعُورُهُ بِالْحَيَاةِ نَفْسُهُ فِي الْفَقْدِ، يَزْدَادُ ثِقَلُ الزَّمَنِ، وَتَشْتَدُّ الرَّغْبَةُ فِي الِانْسِحَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

رُبَّمَا يَكُونُ هَذَا مَا يَمْنَحُنَا إِيَّاهُ الْحُبُّ، أَنَّنَا نَنْتَظِرُ وَصْلَ الْحَبِيبِ، أَوْ لَحَظَاتٍ أَكْثَرَ مِنَ السَّعَادَةِ مَعَهُ، وَمَا دَامَ الْغَدُ يَحْمِلُ لَنَا أَحْلَامًا مُؤَكَّدَةً، فَسَنَتَمَسَّكُ بِهِ، وَسَنَتَمَسَّكُ بِوُجُودِنَا حَتَّى نَصِلَ إِلَيْهِ.

رُبَّمَا يَكُونُ الشُّعُورُ الْأَصْعَبُ أَنْ نَتَقَبَّلَ اللَّحْظَةَ الرَّاهِنَةَ، نَتَقَبَّلَهَا فَنُقْبِلَ عَلَيْهَا بِكُلِّيَّتِنَا، وَنَعِيشَ الْأَلَمَ بِاسْتِسْلَامٍ لَهُ، وَنَعِيشَ السَّعَادَةَ بِمَذَاقِهَا وَرَائِحَتِهَا، وَنُغْمِضَ أَعْيُنَنَا لَهَا، وَنَعِيشَ الْوَاجِبَ بِقِيَامِنَا بِهِ، وَنَعِيشَ الرَّاحَةَ بِانْغِمَاسِنَا فِيهَا!

لَا أَعْنِي فُقْدَانَ الْوِجْهَةَ، وَأَنْ تَكُونَ هَوَائِيَّ الْمِزَاجِ، بَلْ أَعْنِي أَنْ تَكُونَ مُنْشَغِلًا بِالْآنَ عَنِ الْغَدِ وَالْأَمْسِ، الْآنَ لَهُ مَهَامُهُ، وَآلَامُهُ، وَأَفْرَاحُهُ. تَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى شَرِيعَةٍ تُنِيرُ لَكَ الطَّرِيقَ وَالِاخْتِيَارَ، وَتُمَيِّزُ لَكَ مَرَاتِبَ الْأَشْيَاءِ؛ فَتَنْشَغِلُ بِالْوَاجِبِ إِنْ جَاءَ وَقْتُهُ، وَتَسْتَمْتِعُ بِالرَّاحَةِ إِنْ جَاءَ وَقْتُهَا، فَشُغْلُكَ هُوَ الْآنَ. وَالْآنَ هَذَا لَا يَمْنَحُكَ أَمَلًا كَالْغَدِ، وَلَا يَشْغَلُكَ كَالْأَمْسِ، وَلَكِنَّهُ يَمْنَحُكَ وُجُودَكَ الْحَاضِرَ، يَمْنَحُكَ الِاتِّسَاقَ مَعَ حَقِيقَةِ أَنَّ وُجُودَكَ هُوَ أَنْتَ، فَأَنْتَ هُنَا الْآنَ، وَغَدًا لَيْسَ أَنْتَ، كَمَا لَمْ يَعُدِ الْأَمْسُ لَكَ، لَا أَعْنِي وُجُودَكَ الَّذِي هُوَ طُغْيَانُ الشُّعُورِ بِالذَّاتِ، بَلْ وُجُودَكَ الَّذِي هُوَ انْشِغَالٌ عَنِ الذَّاتِ بِالْوُجُودِ الْمَمْنُوحِ لِلذَّاتِ، انْشِغَالٌ بِمَا يَرِدُ عَلَيْكَ مِنْهُ؛ لِتَنْشَغِلَ حَقِيقَةً بِهِ، فَالْآنَ هُوَ الْوُجُودُ، واللهُ وَحْدَهُ وَاهِبُ الْوُجُودِ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كَيْفَ نُفَكِّرُ؟

الْأَغْلَبُ فِي أَفْكَارِنَا أَنَّنَا نَسْتَحْضِرُ الْمَعَانِيَ مُقَيَّدَةً، وَمَحْصُورَةً فِي نِطَاقِ خِبْرَاتِنَا الضَّيِّقَةِ، وَنَعْجَزُ عَنْ تَجْرِيدِ الْمَعْنَى مِنْ صُوَرِهِ الذِّهْنِيَّةِ.

إِذَا أَخْبَرْتُكَ أَنَّ فُلَانًا «شَيْخٌ» فَسَتَجِدُ أَنَّكَ رَسَمْتَ لَهُ صُورَةً ذِهْنِيَّةً مُعَيَّنَةً مِنْ وَاقِعِ خِبْرَاتِكَ الْحَيَاتِيَّةِ، وَفِي الْأَغْلَبِ هَذِهِ الصُّورَةُ مُتَأَثِّرَةٌ بِحُكْمِكَ الْمُسْبَقِ عَلَى الشُّيُوخِ، وَالَّذِي هُوَ نِتَاجُ تَجَارِبِكَ الشَّخْصِيَّةِ.

قَدْ تَكُونُ تَجْرِبَتُكَ لَطِيفَةً مَعَ شَيْخٍ مُتَفَهِّمٍ وعَقْلَانِيٍّ وَمَوْضُوعِيٍّ وَذِي خُلُقٍ وَدِينٍ، فَتَجِدُ أَنَّ اللَّفْظَةَ ذَاتُ وَقْعٍ لَطِيفٍ عِنْدَكَ، وَالْعَكْسُ صَحِيحٌ، فَقَدْ تَكُونُ تَجْرِبَتُكَ مَعَ شَخْصٍ جَهُولٍ غَضُوبٍ مُتَشَدِّدٍ، فَتَشْعُرُ بِالِامْتِعَاضِ لِسَمَاعِ الْكَلِمَةِ، وَهَكَذَا.

وَلَا شَكَّ أَنَّ بِتَكْرَارِ التَّعَامُلِ مَعَ نَمَطٍ مُعَيَّنٍ تَرْسَخُ الصُّورَةُ الذِّهْنِيَّةُ وَيَصْعُبُ مَحْوُهَا.

قُلْ مِثْلَ ذَلِكَ عَلَى أَلْفَاظٍ مِثْلِ النِّعْمَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْحُبِّ، سَتَجِدُ أَنَّكَ فِي أَغْلَبِ الْأَحْيَانِ تُفَكِّرُ فِيهَا مُتَأَثِّرًا بِتَصَوُّرِكَ الشَّخْصِيِّ الْخَاصِّ جِدًّا بِتَجَارِبِكَ، فَتَعْجَزُ عَنْ تَجْرِيدِ مَفْهُومٍ مُطْلَقٍ لِلْكَلِمَةِ.

وَهَذَا أَمْرٌ يَجْعَلُنَا نُسِيءُ فَهْمَ غَيْرِنَا وَنُسِيءُ تَقَبُّلَ الْأَفْكَارِ.

إِذَا حَذَّرَكَ إِنْسَانٌ مِنَ التَّعَلُّقِ بالغَيرِ، وَفِي حَيَاتِكَ صَدِيقٌ مُخْلِصٌ، فَإِنَّكَ تَسْتَهْجِنُ كَلَامَ هَذَا النَّاصِحِ، وَتَرَاهُ كَأَنَّهُ يُحَذِّرُكَ مِنْ صَاحِبِكَ هَذَا، فَتَقُولُ فِي نَفْسِكَ: لَعَلَّهُ لَمْ يُرْزَقْ بِمِثْلِ صَاحِبِي!

وَلَوْ قُلْتُ: إِنَّ سِرَّ مُعْظَمِ سُوءِ الْفَهْمِ وَقُصُورِهِ نَابِعٌ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ فِي التَّفْكِيرِ،لمَا كنتُ مُبالِغًا، وأَعْنِي هذه الطَّرِيقَةَ الَّتِي نَسْتَحْضِرُ فِيهَا تَجَارِبَنَا وَتَشَخُّصَاتِ الْمَعَانِي فِي حَيَاتِنَا، فَنُحَاكِمُ الْكَلَامَ الْمُجَرَّدَ إِلَى وَاقِعِنَا الشَّخْصِيِّ، فَبَدَلًا مِنْ أَنْ نَنْظُرَ إِلَى الْكَلَامِ مِنْ حَيْثُ هُوَ، فَنَسْتَفِيدَ مِنْ عُمُومِهِ، وَنَرَاهُ يُخَاطِبُنَا، وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ، نَجُرُّهُ لِوَاقِعِ اللَّحْظَةِ وَضِيقِ الصُّورَةِ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وَلَيْتَ الْأَمْرَ يَقِفُ عِنْدَ هَذَا الْقَدْرِ مِنْ ضِيقِ الْفَهْمِ، بَلْ يَمْتَدُّ لِتَحْكِيمِ الْوَهْمِ عَلَى الْكَلَامِ، وَيَكْسُو إِدْرَاكَنَا غِلافٌ مِنْ تَبَلُّدِ الْمَشَاعِرِ وَفَرْطِ الْأَنَانِيَّةِ.

فَقَدْ يَحْكِي لَكَ شَخْصٌ عَنْ أَلَمِهِ فِي تَجْرِبَةٍ مَا، فَمَا إِنْ يَشْرَعْ فِي ذِكْرِ قِصَّتِهِ، حَتَّى تَسْتَحْضِرَ مَا يُشْبِهُهَا مِنْ تَجَارِبِكَ، فَتُحَاكِمَ أَلَمَهُ إِلَى أَلَمِكَ، وَرُبَّمَا تُزَايِدُ عَلَيْهِ، وَرُبَّمَا ظَنَنْتَ أَنَّ شُعُورَكَ يَتَّحِدُ مَعَهُ، وَأَنْتَ لَمْ تُدْرِكْ إِلَّا نَفْسَكَ، وَلَمْ تَسْتَحْضِرْ إِلَّا أَلَمَكَ.

فَشَتَّانَ بَيْنَ مَنْ يَتَأَلَّمُ لِإِنْسَانٍ؛ لِأَنَّهُ مَرَّ بِهَذَا الْأَلَمِ مِنْ قَبْلُ، وَبَيْنَ مَنْ يَتَأَلَّمُ لِإِنْسَانٍ؛ لِشِدَّةِ إِحْسَاسِهِ بِهِ، حَتَّى كَأَنَّهُ يَسْمَعُ صَوْتَ مَشَاعِرِهِ، وَيُبْصِرُ آلَامَهُ!

ذَلِكَ أَنَّنَا لَا نُدْرِكُ - فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ - الْمَشَاعِرَ إِلَّا إِنْ مَرَرْنَا بِهَا، وَلَا نَفْهَمُ التَّجَارِبَ إِلَّا فِي ضَوْءِ تَجَارِبِنَا، رغمَ مَا فِي قِصَّةِ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خُصُوصٍ.

فَإِنْ أَرَدْتَ الْخُرُوجَ مِنْ تِلْكَ الدَّائِرَةِ الضَّيِّقَةِ، فَتَعَامَلْ مَعَ كُلِّ خَبَرٍ كَتَجْرِبَةٍ جَدِيدَةٍ، تَنْتَقِلُ - أَنْتَ - مَعَ صَاحِبِهَا إِلَى عَالَمِهِ، لَا إِلَى عَالَمِكَ، وَتَسْتَمِعُ لِآلَامِهِ، لَا إِلَى مَاضِيكَ، وَتَرْسُمُ مَعَهُ صُورَةَ قِصَّتِهِ، وَلَا تَسْتَحْضِرْ قِصَّتَكَ.

فَحِينَهَا تَزْدَادُ تَجَارِبُكَ ثَرَاءً، وَتَنْتَبِهُ مَشَاعِرُكَ لِمَعَانٍ كُنْتَ عَنْهَا فِي غَفْلَةٍ. فَبِقَدْرِ خُرُوجِكَ مِنْ سِجْنِ نَفْسِكَ، تَتَّسِعُ الْأَفْكَارُ وَتَتَّضِحُ الْمَعَانِي، وَتَرِقُّ الْمَشَاعِرُ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضَعْفُنَا

هَذَا مَا تُبْدِيهِ الْأَيَّامُ؛ فَيَزْدَادُ وُضُوحًا.

كُنْتُ فِيمَا مَضَى أَفْرَحُ بِجِدِّي فِي الْعِبَادَاتِ، فَلَمَّا رَأَيْتُ النَّفْسَ تَزِلُّ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى فِي الْمَعَاصِي، عَلِمْتُ شِدَّةَ ضَعْفِهَا، وَقِلَّةَ حِيلَتِهَا، مَا كَانَ بَعِيدًا بِالْأَمْسِ صَارَ قَرِيبًا الْيَوْمَ، وَالْأَبْعَدُ صَارَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ خُطْوَةٌ بَعْدَ أَنْ كَانَ لَا يَخْطُرُ عَلَى بَالٍ.

ثُمَّ عُدْتُ لِعِبَادَاتِي تِلْكَ بِالْبَحْثِ وَالنَّظَرِ، فَوَجَدْتُ الْأَوْهَامَ تَعْلُوهَا!

تَقِفُ بَيْنَ يَدَيْ مَلِكِ الْمُلُوكِ - سُبْحَانَهُ - وَهُوَ الَّذِي أَقَامَكَ، فَكَأَنَّكَ فَتَحْتَ الْفُتُوحَ، وَسِرْتَ بِالْجُيُوشِ، فَتَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْ بَابِ التِّيهِ، وَتَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِطَلَبِ الِاسْتِحْقَاقِ، وَشَتَّانَ بَيْنَ سُؤَالِ الرَّاجِي وَسُؤَالِ صَاحِبِ الْحَقِّ!

فَتَجِدُهُ يُجِيبُ طَلَبَكَ، وَيَكْشِفُ كَرْبَكَ، فَلَا تَزْدَادُ إِلَّا وَهْمًا بِنَفْسِكَ وَتِيهًا بِقُرْبِكَ.

هَذَا ضَعْفُ الْعَابِدِ، فَمَاذَا عَنْ ضَعْفِنَا أَمَامَ الْمَعَاصِي؟ إِنَّنَا نَظُنُّ فِي أَنْفُسِنَا الْقُدْرَةَ عِنْدَمَا لَا تَشْتَعِلُ فِي صُدُورِنَا نَارُ الشَّهْوَةِ، ولا يَشْتَدُّ قُرْبُنَا مِنَ الْمَحْظُورِ. تَسْتَطِيعُ أَنْ تَظُنَّ فِي نَفْسِكَ الصَّبْرَ عَلَى الطَّعَامِ الْحَرَامِ، مَا لَمْ يُقَدَّمْ لَكَ وَأَنْتَ جَائِعٌ، وَقَدْ أُعِدَّ كَأَحْسَنِ مَا يَكُونُ، حِينَهَا تَكْتَشِفُ ضَعْفَ إِرَادَتِكَ، وَوَهْنَ عَزِيمَتِكَ!

فَكَثِيرٌ مِنْ عِصْمَتِنَا مِنَ انْصِرَافِ أَسْبَابِ الزَّلَلِ عَنَّا، لَا أَكْثَرُ، وَعِنْدَمَا تَقْتَرِبُ وَيَظْهَرُ ضَعْفُ قُلُوبِنَا، نَشْعُرُ بِأَنَّنَا نَفْقِدُ السَّيْطَرَةَ عَلَى أَحْوَالِنَا وَأَعْمَالِنَا.

حِينَهَا يَشْتَدُّ شُعُورُكَ بِالضَّعْفِ، وَتَعْلَمُ أَنَّ الْقَلْبَ يَتَحَوَّلُ فِي لَحْظَةٍ، وَأَنَّ التَّائِبَ مَنْ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ.

هَذَا قَلِيلٌ عَنِ الْقَلْبِ، أَمَّا الْبَدَنُ؛ فَمَا أَوْضَحَ ضَعْفَهُ، حَتَّى إِنَّهُ لَا يَكَادُ يَخْفَى إِلَّا عَلَى أَعْمَى، فَإِنْ كَانَ عُذْرُ أَصْحَابِ الْقُلُوبِ الْغَافِلَةِ أَنَّ الْقُلُوبَ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ

الّذِي لَا نَرَاهُ، فَمَا أَضْعَفَ حُجَّةَ مَنْ يَتِيهُ بِبَدَنِهِ وَالْأَسْقَامُ لَا تُفَارِقُهُ، وَالْحَاجَةُ لِلطَّعَامِ وَالسَّتْرِ دَائِمَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ.

نَعَمْ، نَحْنُ ضُعَفَاءُ، وَلَا أُحِبُّ أَنْ أَبِيعَ لَكَ الْوَهْمَ، فَأُخْبِرَكَ عَنْ مَهَارَتِكَ وَخِبْرَتِكَ.

لَا أَبْخَسُكَ قَدْرَكَ - وَلَا أُرِيدُكَ أَنْ تَبْخَسَ نَفْسَكَ قَدْرَهَا -، وَلَكِنْ شَتَّانَ بَيْنَ مَهَارَةٍ اكْتَسَبْتَهَا تَحْتَاجُ لِأَلْفِ سَلَامَةٍ لِحِفْظِهَا، وَبَيْنَ مَدَدٍ إِلَهِيٍّ يُعِينُنَا فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، وَلَوْلَاهُ لَانْقَطَعَتِ الْأَعْنَاقُ، وَزَالَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاوَاتُ.

كُنْتُ أَفْرَحُ بِكَثْرَةِ مُطَالَعَتِي وَطُولِ نَظَرِي فِي الْكُتُبِ - وَهِيَ مَوْهِبَةٌ يَفْتَقِدُهَا الكَثِيرُ - وَلَكِنْ، يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ دَبَّ الضَّعْفُ إِلَى نَظَرِي، وَصَارَتْ قُدُرَاتُ الْأَمْسِ مُقَيَّدَةً، فَهَذِهِ الْمَوْهِبَةُ - أَعْنِي الصَّبْرَ عَلَى الْقِرَاءَةِ - تَحْتَاجُ لِتَسْلَمَ لَكَ أَنْ يَحْفَظَ اللهُ عَلَيْكَ بَصَرَكَ، وَأَنْ يَفَرِّغَ لَكَ وَقْتُكَ، ثُمَّ يَسْلَمَ لَكَ بَدَنُكَ مِنَ الْآفَاتِ الْمُعِيقَةِ؛ فَرُبَّ أَلَمٍ وَاحِدٍ يُشَوِّشُ بَالَكَ، وَيَمْنَعُكَ مِنْ أَدْنَى تَحْصِيلٍ. وَتَحْتَاجُ لِحِفْظِهَا أَنْ تُرْزَقَ الْفَهْمَ، وَيُحْفَظَ عَلَيْكَ مَا وَعَيْتَ، وَهَكَذَا تَمْتَدُّ قَائِمَةُ الْحَوَائِجِ الَّتِي لَوْلَا سَلَامَتُهَا مَا سَلِمَتْ لَكَ مَهَارَتُكَ، فَضْلًا عَلَى حَاجَتِكَ لِسَلَامَةِ مَهَارَتِكَ نَفْسِهَا مِنَ السَّلْبِ؛ إِذْ لَا بَقَاءَ لَهَا بِذَاتِهَا، وَلَا يُوجَدُ مَا يُرَجِّحُ وُجُودَهَا فِي كُلِّ آنٍ، إِلَّا مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

نَعَمْ، نَحْنُ ضُعَفَاءُ، رُزِقْنَا بِبَعْضِ الْهِبَاتِ، وَأَعَانَنَا اللهُ بِبَعْضِ الصِّفَاتِ، وَأَجْرَى عَلَيْنَا الْعَمَلَ الصَّالِحَ، فَإِنْ تَنَبَّهْنَا لِعَظِيمِ نِعْمَتِهِ، وَشَكَرْنَا فَضْلَ رِزْقِهِ، وَصَانَ الْأَصِيلُ مِنَّا سَابِقَ عَهْدِهِ؛ فَهُنَا حُقَّ لَنَا أَنْ نَسْتَنِدَ إِلَى مُسْتَنَدٍ مَتِينٍ، فَالضَّعِيفُ قَدْ يَقْوَى بِغَيْرِهِ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القَيُّومُ

رُبَّمَا لَمْ أرَ معجزةً واضحةً في حياتِي، كميِّتٍ يُفيقُ أو مريضٍ مَيْئُوسٍ مِنْه يُشْفَى.

أعلَمُ أنَّ البعضَ عندهُ قصصٌ صادقةٌ تُروَى في هذا، ولكنِّي أتكلمُ عن نفسِي.

لمْ أرَ يومًا مَا يشدَهُ العقلَ لخرقِهِ للعادةِ، أو أقعْ فِي يأسٍ ينكشفُ فِي لحظةٍ كوميضِ البَرْقِ اللامعِ إذَا أحالَ السماءَ المُظلِمةَ إلى نهارٍ، فإذَا بكلِّ مَن استطالَ الليلَ يُشرقُ فِي قلبهِ الأملُ.

لمْ أرَ هذا، ولكنِّي رأيتُ ضعفِي المحمولَ بقوتِهِ، وعجزِي الممدودَ برعايتِه، فكُلَّما اشتدَّ إدراكِي لافتقارِي، علمتُ كمْ منْ معونةٍ موصولةٍ لِي، وكم مِنْ تعهُّدٍ دائمٍ بِي.

هَبْ أنكَ طفلٌ صغيرٌ يُلقيهِ أبوهُ إلى أعلى ثمَّ يتلقّفُهُ، ففي ارتفاعِه ظنَّ أنه يُحَلِّقُ ويطيرُ، وهو في الحقيقةِ لو هبطَ بلا يدٍ تتلقفُه لهلَكَ، فكيف وهو لم يصعَدْ إلا بغيرِهِ، ولم يُحَلِّقْ إلا في سماءِ أبيهِ؟

لعلَّ هذا الطفلَ الصغيرَ لا يدركُ هذا لنشوةِ الارتفاعِ في السماءِ؛ فلا يبصرُ هذه اليدَ التي تحتَه تنتظرُه، كما نسِيَهَا حين دفعَتْهُ إلى أعلى؛ فاللحظةُ الحاليةُ - لحظةُ النشوةِ والانطلاقِ - أنسَتْهُ كلَّ شيءٍ إلا سعادتَهُ، والسعادةُ خمرُ الدنيا الحلالُ.

ربما يحتاجُ لأن ينزلَ إلى الأرضِ ليُدرِكَ حقيقةَ عجزِهِ بذاتِهِ، أو ينصرفَ عنهُ أبوه ليُدركَ شدَّةَ افتقارِهِ إليه، أو يشُبَّ بضعَ سنواتٍ ليُدركَ بعقلِه الصورةَ الأوسعَ؛ فيتنبَّهَ للأسبابِ قبلَ المُسبَّباتِ، وللمؤثِّرِ قبلَ الأثرِ.

فإنْ تنبهْتَ لضعفِكَ، وتأمَّلتَ طولَ حاجتِكَ وبقاءَهَا، ثم وجدتَ الوجودَ لا يحفظُها عليكَ بذاتِه؛ إذ ما يؤمنُك أن تميدَ بكَ الأرضُ التي تستندُ إليها، أو ينقطعَ عنك مالُكَ فلا تجدَ قوتَ يومِكَ، أو يُقطعَ النورُ عن أعصابِ عينِكَ؛ فتتحولَ الدنيا إلى ظلامٍ دامسٍ؟!

الاحتمالاتُ في كلِّ آنٍ متساويةٌ. لا يُشترَطُ أن تُدرِكَ أسبابَها، ولكنْ إن أبَيْتَ إلا أنْ تقفَ مع كلِّ سببٍ، فما أكثرَ الحوادثَ والعوارضَ التي أتتِ الآمنينَ.

هذا ضعفٌ مستمرٌّ لا يخفَى على عاقلٍ، ضعفٌ حتى عن رفعِ اليدينِ بلا معونةٍ منهُ وإمدادٍ، حتى المعصيةُ التي أرتكِبُهَا بجوارحِي، لولا ما وهَبَهُ لي من القدرةِ لَمَا قدرْتُ عليها.

هنا تتكشَّفُ بوضوحٍ قيوميَّتُه، تعهدُه لي وقيامُه على أمري، لا أقولُ بما يَسُوقُه إليَّ من مالٍ، أو يُبقيه عليَّ من صحةٍ، بل في كلِّ شيءٍ؛ إذ لا بقاءَ للمالِ إلا بحفظِه، ولا انتفاعَ به إلا بآلافِ الأسبابِ التي تعملُ كالخادمِ له، مِن عقلٍ يُدَبِّرُ، ويدٍ تبيعُ وتشتري، ونارٍ تُنضِجُ الطعامَ، وأضراسٍ تطحَنُ، وأمعاءٍ تهضمُ، والقائمةُ تطولُ ولا تنقطعُ.

نعَمْ، ضعفي زادني يقينًا بقيامِه على أمري، وكلما ازدادَ إدراكي لأوجُهِ الضعفِ؛ زادتْ بصيرتي بقيُّوميَّتِه عليَّ.

ولكن ربما احتجتُ في أولِ الانتباهِ إلى ضعفٍ عارضٍ - كمرضٍ أو فقرٍ - مثلُ ذلكَ الطفلُ الذي يحتاجُ إلى أن يَهوِيَ إلى الأرضِ ليعلمَ أنهَ لا يقدرُ على الطيرانِ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفَقْرُ

لعلّ أشدَّ ما في الفقرِ ألمُ العجزِ، وأشدَّ ما في العجزِ الرغبةُ، فما أنتَ راغبٌ عنهُ فأنتَ زاهدٌ فيه لا تطلبُه. فإن فاتكَ فما فاتكَ!

أمَّا العجزُ فهو رغبتُكَ التي تقصرُ دونَها يدُكَ، تريدُ فيرُدُكَ عدمُ الوجدانِ، فتنقلبُ الرغبةُ حسرةً وغُصّةَ قهرٍ، تقولُ: «ليتَني لم أرغبْ!»؛ فإنَّ الزاهدَ في عافيةٍ، أو «ليتَني قادرٌ!»؛ فإنَّ الغِنَى نوعُ قدرةٍ.

لن أُحَدّثَكَ عن أنواعِ الفقرِ، فإنَّ أشدَّ ما نَهابُه هو فقرُ المالِ، أشدُّ أنواعِ الفقرِ وطأةً، وأثقلُها على القلبِ؛ يشوشُ الخاطرَ، ويُزعجُ الفكرَ، فلا تكادُ تستقيمُ لك صلاةٌ، ولا تهنأ لك عينٌ، وقد فرغَ جيبُك وأصفَرتْ أدراجُك. فإنْ صَحِبَ هذا وجودُ مَنْ تعولُ صارَ الهَمَّ همَّيْنِ، بل ثلاثةً؛ هَمَّ نفسِك، وهمَّ مَن تلزمُك نفقتُه، وهمَّ شفقتِك وعجزِك.

وما أكثرَ ما يزورُ الفقرُ بيوتَنا، ولو في أيامٍ يسيراتٍ، وما أثقلَ هذا على الرجالِ!

أذكرُ الآنَ نظراتِ أبي الشاردةَ في النافذةِ، وهو جالسٌ على طرَفِ فراشِه، وأنا طفلٌ لا أبالِي بما سوى مطَالبِي، حتى تزجرَنِي أمي في حزمٍ، معلنةً عدمَ المالِ.

كمْ مِن الأثقالِ كانَ يحملُ حينَها، ولا يُعينُهُ أحدٌ، ربما بحثَ في قائمةِ معارفِه عمَّن يُعينُهُ، فردَّه خائبًا سبقُ الطلبِ.

ماذا يبقَى بعد الأصدقاءِ؟ فماذا إنْ ذهبَ الأصدقاءُ أنفسُهم؟

هكذا نكتشفُ أنفُسَنَا، بضعُ أوراقٍ تذهبُ من جيبِك تُحيلُ حياتَك ظلامًا، وبضعٌ منها تدخلُهُ تُعيدُ لكَ الأنفاسَ!

ربما أعانَكَ زهدُك على التخففِ من مغارمِ الحياةِ، ولكن يبقى بعد الزهدِ حدٌّ من الاحتياجِ لا يفي به زهدُك، فليس في أصلِ الحياةِ زهدٌ.

هكذا تشهدُ عليك تقلُّباتُ الحياة بِعَوَزِك وضعفِك مرةً أخرى، وهكذا تكتشفُ أن طمأنينتَك رهينةٌ بالمالِ.

ربما ظننتَ أنكَ بكثرتِه تتجاوزُ ألمَ العَوَزِ، فرُحْتَ تلهثُ في الحياةِ؛ تجمعُ المالَ وتستكثرُ منه، فإن راجعَكَ ناصحٌ، صِحْتَ فيه قائلًا: «مِن ألمِ الأمسِ أفِرُّ، أو لخوفِ الغدِ أستبقُ».

ولا تدري أنَّ المالَ - وإن زادَ - لا يقوَى على دفعِ خوفِك ما لم يطمئنَّ قلبُكَ، والقلبُ الذي يطمئنُّ بأوراقٍ تأتي وتذهبُ، وتتبدّلُ فيها الأحوالُ، هو للعقلِ أحوَجُ منه إلى المالِ.

فكمْ مِن غنيٍّ تبدلتْ بهِ الأحوالُ، فكانَ مرارُ الحاجةِ بعد الغِنَى أشدَّ وطأةً على النفسِ ممَّن امتدَّ به الحرمانُ.

أستطيعُ أن أحكيَ لكَ العديدَ مِن القصصِ التي شاهدتُها بنفسِي، وأضربَ لكَ الأمثلةَ على سرعةِ تبدُّلِ الأحوالِ، ولكنَّ العاقلَ يكتفِي بالتنبيهِ على العلّةِ، والغافلَ لا يقنَعُ بتجربةِ غيرِه حتى يذوقَ بنفسِه.

لا أطالِبُكَ بتركِ السعيِ والكسبِ، بل أقولُ لكَ اربعْ على نفسِك، وهوِّنْ على قلبِكَ!

لا بأسَ من التألمِ بمقتضى طبعِكَ، ولكن شتَّانَ بينَ جزعٍ مُهلِكٍ ويأسٍ مُحبطٍ، وبينَ ألمٍ عابرٍ تُوقِنُ معَه أنَّ الحياةَ لنْ تتوقفَ.

ها قد واريتُ أبي بالترابِ بعدَ عقودِه الثمانيةِ، مرّتْ بما فيها من فقرٍ وغنًى، وقوةٍ وضعفٍ ومرضٍ، مضَى في رحلتِه، ولم يمُتْ جوعًا، بل أبدلَ اللهُ الحالَ بعد الحالِ، وهكذا كلُّ شيءٍ في هذه الحياةِ لا يبقى على حالٍ، ولا يستمرُ ألمٌ حتى يقطعَه فرحٌ، ولا يدومُ فرحٌ حتى يكدرَه حزنٌ.

فكُنْ خفيفًا في أمرِك؛ لا تقفُ كثيرًا عند حالِك، ولا يعظمُ اعتقادُك في مالِك، فالدنيا متاعُ الغرورِ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الغفلةُ

أتَذْكُرُ صراخَك يومَ أن كنتَ رضيعًا؟ لا أظنُّك تذكرُ، كما لا تذكرُ تذمرَكَ يومَ أن كنتَ طفلًا صغيرًا.

ربما بدأتَ تُدركُ ما تفعلُ وقتَ الصِّبا، وأولُ إدراكِك هو لنفسِك فقط، أمَّا أنْ تدركَ إزعاجَك لأمِّك، وإرهاقَك لأبيك فربما تحتاجُ إلى بضعِ سنواتٍ أخرى لتشعُرَ بغيرِك، فإذا بكَ تطرقُ أولَّ أبوابِ اليقظةِ: أعني أنْ تشعرَ بغيرِك، أن تخرجَ من حدودِ نفسِك الضيقةِ لتبدَأ تشاهِدُ أنَّ العالمَ أوسعُ منكَ، وهي مشاهدةٌ ما كنتَ لتدركَها إلا بعدَ انتباهِك لنفسِك.

ربما استغرقَك العالمُ الواسعُ بمشاهدتِه، وجذبَك إليه ببهجتِه، فرُحْتَ تنتقلُ بين أركانِه، وتنهلُ من مشاربِه.

متى أبصرتُ ذلك الوهنَ الذي دبَّ في جسدِ أمي، ومتى انتبهتُ إلى هذه الخطواتِ البطيئةِ التي صارَ يخطُوها أبِي؟

متى شعَرتُ بأنَّ نصفَ كلامِي غِيبةٌ، وإن خرجَ مخرجَ السمَرِ؟ ومتى رأيتُ نفسي أتكاسلُ عن المسجدِ، وقد كنتُ أظنُّه انشغالًا؟!

إنها لحظاتٌ تتضحُ فيها الحقائقُ شيئًا فشيئًا، كنائمٍ في آخرِ نومِه، أو مستيقظٍ في أوَّلِ صحْوِه.

ليستْ هناكَ بالضرورةِ لحظةٌ فارقةٌ، تُخرِجُنا من غفلتِنا - كحادثٍ أو فقْدِ عزيزٍ - بل الأمرُ أشبهُ برؤيةٍ تتضحُ شيئًا فشيئًا، كقادمٍ من بعيدٍ؛ كلما اقتربَ ازدادتْ ملامحُه وضوحًا، وزادَتْ به معرفتُك.

وأظنُّ أنَّ السببَ الأكبرَ لاتِّضَاحِ الرؤيةِ هو الخروجُ عن شدةِ اللذةِ، فالمنهمكُ في لذَّاتِه يصعُبُ عليه أن يدركَ غيرَ ذاتِه، بل ربما صَعُبَ عليهِ أن يتجاوزَ في إدراكِه شهواتِه!

وألعابُ الطفولةِ تستغرقُ من الطفلِ عقلَه، وانطلاقُ الشبابِ يسلبُ من الإنسانِ تأمُلَه وبصيرتَه، فأنتَ في كلِّ يومٍ في جديدٍ كطائرٍ يُحَلِّقُ في السماءِ، فلا يُبْصِرُ مِن الأرضِ إلا الظلالَ!

فعندما تهدأُ النفسُ، وتقلُّ الوجوهُ والأحداثُ، يتضحُ للقلبِ ما لم يرَه، ويُبصرُ ما تجاهلَه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البَاعِثُ

كم من مرةٍ استيقظْتُ فيها لصلاةِ الفجرِ مِن غيرِ مُنبِّهٍ رغمَ تعبِ اليومِ، وطولِ السهرِ؟

إنَّ الأمرَ يقينًا ليس منِّي، إنها نعمةٌ أستشعرُ بها حينَها، أن يُنهِضَك من غفلتِك لتقفَ بين يديْه، من غيرِ سببٍ أو وسيلةٍ.

القلوبُ تُبعَثُ في لحظةٍ، وتُسلَبُ في لحظةٍ، وبذرةُ الخيرِ في قلبِ المؤمنِ لا تَذبُلُ مَا لَمْ تُسلَبْ، فإنْ طالتِ الأيامُ وجفَّتِ الأرضُ حتى ظنَّ السائرُ أنها مَواتٌ، أنزلَ اللهُ عليها رحماتِه؛ فأنبتتْ بذرةُ الإيمانِ صالحَ الأعمالِ.

فلا تُقَنِّطْ عاصيًا لوصفِه، فوصْفُنا الموتُ، ووصْفُ اللهِ الحياةُ، والموتى يبعثُهم اللهُ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النسيانُ

هو نعمةٌ أحيانًا، وبلاءٌ أحيانًا أخرى.

نعمةٌ عندما يكونُ نسيانُنا لآلامِنا، ولتجارِبنا المريرةِ، وبلاءٌ حينَ ننسَى ما ينفعُنا.

لو نسِيتَ أن تُغْلِقَ بابَ سيارتِك فسُرِقَ منها شيءٌ، أو نَسِيتَ أن تغلقَ المُكيّفَ حتى جاءَك حسابُ الكهرَباءِ في غايةِ الارتفاعِ، فإنَّه نسيانٌ مؤلِمٌ.

وكذلك نسيانُ المواعيدِ المهمةِ مع مَن تحبُّ، أو التي ترجُو منها الخيرَ.

قد نرَى نسيانَ الذنوبِ بأهميةٍ أقلَّ، بل في الحقيقةِ نميلُ إلى هذا النسيانِ، لأنَّ وخزَ الضميرِ مؤلمٌ حقًا، فبنسيانِنا نرفعُ شيئًا مِن الألمِ عن أنفسِنا.

كمْ مِنْ أمرٍ انقضَى ومضَى فكانَ نَسْيًا مَنْسِيًّا! وكم مِن أيامٍ وتفاصيلَ تقفُ وراءَنا! هيَ في الحقيقةِ التي صنعتْنا، فباجتماعِ الأيامِ نكونُ نحنُ.

فإن أيقنْتَ أنَّ ما فاتَ لمْ يمُتْ، بل هو حيٌّ في صحائفِ الأعمالِ، ينتظرُ لحظةَ الاستدعاءِ ليقفَ شاهدًا عليك أو لك، فأنتَ حينئذٍ أحوجُ ما يكونُ إلى محاولةِ التذكُّرِ، والتفتيشِ في ماضِيك، لتُنَظِّفَه من آثامِ الأمسِ بالاستغفارِ أو تُخَصِّصَهُ بالتوبةِ.

إلّا أنَّ مِنَ الناسِ مَنْ يحتاجُ لنِسيانِ ذنوبِه ليتمكنَ مِنَ السيرِ، إنهم أصحابُ القلقِ الدائمِ والشعورِ المستمرِ بالتقصيرِ، لا يُتقنون سوى جلدَ الذاتِ وانتقاصِها، وهذا الشعورُ يعصفُ بكُلِّ أمَلٍ وهِمَّةٍ، فكأنَ ماضيَهم يجذبُهُم للوراءِ، كلَّما أرادوا الانطلاقَ شدّهم قائلًا: كيفَ تقفُ بين يديه وقدْ عصيتَهُ مُنذُ قليل؟ وكأنَّ العِصيانَ يُغلِقُ بابَ الرحمةِ ويمنعُ العملَ!

فالنسيانُ محمودٌ لمنْ ينحبسُ في الماضي كي ينطلقَ للغدِّ، كما أنه مذمومٌ للمُنطلِقِ في سَيرِهِ بلا رويَّةٍ كي يتعظَ مِنَ الأمسِ.

أما دنياكَ، فربما ظننتَ أنك أحوجُ إلى تذكُّرِها حتى لا تَفْسَدَ مواعيدُك ومهامُك، رَغْمَ أنَّ خسارةَ الدنيا محدودةٌ إذا قُورِنَتْ بخسارةِ الآخرةِ، ولكنْ لا بأسَ، فنحنُ في حاجةٍ إلى دنيانا لندخُلَ منها إلى أخرَانا، ومنْ دونَ تذكّرٍ منَّا وحفظٍ لنا، تضيعُ دنيانا وآخرتُنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قَسْوَةُ القلبِ

ليستْ رقَّةُ القلبِ في البكاءِ في الصلاةِ أو عندَ قراءةِ القرآنِ، بل رقةُ القلبِ في رحمتِه على الخَلقِ، ونشاطِه للحقِ، وإقبالِه على ربِّه، واستعدادِه لتلقِّي كلامِه.

وفي رمضانَ تُفتَحُ المصاحفُ، وتُصَفُّ الأقدامُ، وينهضُ كلُّ عاقلٍ لفضيلةٍ ويغتنمُ الفرصةَ.

حينها تتكشَّفُ لنا أحوالُنا وأمراضُنا وقسوةُ قلوبِنا.

الأمرُ أشبهُ برجُلٍ دامَ جلوسُه حتى سمِنَ وامتلأ بالشحمِ، ثم نهضَ ليركُضَ في ملعبٍ كبيرٍ، فسرعانَ ما يظهرُ له هولُ ما امتلأ به بدنُه، وجثمَ على قلبِه.

وليس الأمرُ حِكرًا على رمضانَ، ولكنَّه يظهرُ في رمضانَ أكثرَ من غيرِه.

وليستْ قسوةُ القلبِ بالأمرِ الذي يحصلُ فجأةً، أو يَرِدُ على حينِ غِرَّةٍ، بل هو شيءٌ يحصلُ شيئًا فشيئًا، كجفافِ الطلاءِ أو فسادِ الخبزِ.

فطولُ إهمالِ النفسِ، واسترسالِها في الغفلةِ يُراكمُ طبقاتٍ من الصدأِ على القلبِ، فإنْ جاءتْ لحظةٌ فارقةٌ - كمواسمِ الخير - لم تسعفْك موعظةٌ تسمعُها، أو كتابٌ تقرؤُه في جلاءِ القلبِ ممَّا علاه.

والقلبُ وظيفتُه المناجاةُ والعبوديةُ والفهمُ والرحمةُ والعطاءُ والحبُّ، فعندما نشغَلُهُ بالدنيا والشرَهِ والملذَّاتِ وحُبِّ الذَّاتِ فإنه ينشغِلُ عن مهمتِه، ويفقِدُ استعدادَه لقَبولِ المعارفِ الإلهيةِ، والتوجهِ إلى ربهِ، والشفقةِ على خلقِه.

فقلبُك لا يعطيكَ إلا بقدرِ ما تعطِيه، فلا تهملْه طَوالَ العامِ ثم تطمعُ أن ينهضَ لك في لحظةٍ أو شهرٍ.

وشتَّانَ بينَ مَن ينتظرُ مواسمَ الخيرِ ليُصلِحَ قلبَه، وبينَ مَن يُصلِحُ قلبَه لينتظِرَ مواسِمَ الخيرِ!

إنَّ الفلاحَ المتقنَ يحرثُ الأرضَ، ويبذُرُها ثم ينتظرُ المطرَ، أمَّا مَن انتظرَ المطرَ ليُصلحَ له أرضَه، فلن يَنبُتَ فيها إلا الحشائشُ.

جَلْدُ الذَّاتِ

كلَّما تكلمْنَا عنِ إصلاحِ النفسِ تبدَّتْ لنا صعوبةُ الموقفِ ووعورةُ الطريقِ، حينَها يصِيحُ بكَ داعي اليأسِ: «قد فاتَ الوقتُ، وبَعُدَتِ المسافةُ، وفاتَ الزمانُ».

ولا أدري أهو يأسٌ شيطانيٌّ أم حيلٌ نفسانيةٌ تُغوِيك بالبطالةِ، وتُزيِّنُ لك الخُمولَ؟

فليس المطلوبُ دومًا أن أحاكمَ ذاتي فأحكُمَ عليها بالسوءِ أو الخيرِ، وبالهدايةِ أو الرشدِ.

بل أنْ أبحثَ في أوصافِها، وأتأمَّلَ فضائلَها وعيوبَها، فأُقوِّي الحسنَ، وأُضعِفَ القبيحَ.

أما البكاءُ على الأطلالِ ومصمصةُ الشفاهِ، فهي حيلةُ العَجَزةِ لِيَقْنَعُوا بتركِ العملِ، فليس المقصودُ هو دَرَكُ الغايةِ، بل المقصودُ هو السيرُ إلى الغاياتِ.

حسبُنا أن نلقَى اللهَ ونحنُ نُحَاوِلُ أن نقومَ من كبواتِنا، وننتصرَ على شهواتِنا، لا أنْ نلقَاهُ مُدبِرينَ مُنْهَزِمِينَ.

فالتنبُّهُ ألمٌ، ولكنّ طولَ الصياحِ لا يَشفي مرضًا، ولا يُزيحُ علةً، فكُفَّ عن ذهولِكَ وحرِّكْ يدَكَ، ولا تحاولْ استيعابَ الكمالِ من أوَّلِ حالٍ، فطلَبُ الكمالِ مانعٌ، بل الكمالُ يُطلَبُ ليُسارَ إليه، فتعتدلُ الوجهةُ وترتسمُ الغايةُ، ومَنْ سَارَ خُطْوةً، سِيرَ بهِ أَلْفٌ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبلَ إحدَى المحاضراتِ بساعتينِ كنتُ أراجعُ الكتابَ الذي سأشرحُه، كانَ يتحدثُ عن آدابِ المُريدِ الذي يريدُ أن يكونَ عبدًا ربانيًّا، شعَرْتُ أنَّ الكتابَ لا يُخاطِبُني، ولا يُخاطِبُ الحُضورَ، شَعَرْتُ أنَّه في وادٍ، ونحنُ في وادٍ آخَرَ!

غايتي التخلُّصُ من ذنوبِي، وأن أقتربَ قليلًا مِنَ اللهِ، وشعَرْتُ أنَّ الكتابَ يُخاطبُ مَنْ تجاوزَ هذهِ المرحلةَ بخطواتٍ، فانتبهتُ إلى أننا كثيرًا ما نُهلِكُ أنفسَنَا بسماعِ أحوالِ قومٍ لا يُشبِهونَنا، ولا يُقاربونَ حالَنا، فنشعرُ بالعجزِ واليأسِ.

هممْتُ بأن أُلغِي المحاضرةَ، ثم قررتُ في النهايةِ أن أتحدثَ بلسانِ حالي وحالِ الحضور؛ فتكلمتُ عن مشاكلِنا ورحلتِنا، وما نحتاجُ إليه مِن هذا الدينِ، فكانت المحاضرةُ أطيبَ وأنفعَ ممَّا كنتُ سأتحدثُ فيه.

فشيءٌ مِن التصالحِ مع خطواتِنا الأولى في السيرِ إلى اللهِ يكفي أن يُعطِيَنا عزمًا لمواصلةِ السيرِ والتقدمِ، ولكنْ إنْ أهملْنَا بداياتِنا، واستحقرْنَا يسيرَ محاولاتِنا الأولى، فكيف نطمعُ أن نصلَ إلى خطوةٍ تاليةٍ؟!

فنحنُ لا نحتاجُ إلى أن نجلدَ ذواتِنا كي نتحرَّكَ، بل نحتاجُ إلى أنْ نُدركَ وظيفتَنا وسنةَ اللهِ في السيرِ إليه لنبدأ، وحينَها سنجدُ أنَّ خطواتِنا الأولى تحتاجُ إلى أن ننشغلَ فيها بموضعِ أقدامِنا، لا بتوبيخِ أنفسِنا وجلدِ ذاتِنا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العَطَاءُ

ما مِن أحدٍ إلا ولديْهِ من النِّعَمِ ما يستطيعُ أن يَجُودَ ببعضِها، ولكنَّ العطاءَ فرعٌ من الإدراكِ والحبِّ.

أمّا الإدراكُ فهو أنْ تدركَ وجودَ النعمةِ، وأنَّ العطاءَ منها لا يُفنِيها بل يَزيدُها ويُنَمّيها، هذا أولُ الطريقِ. ولا أعني بالنعمِ الماديات من مالٍ ومتاعٍ فقط، بل من العطاءِ المواساةُ بالجاهِ والوقتِ والمشاعرِ، فعندما تسعى لإنسانٍ في حاجتِه أو تساعدُه بعلاقاتِك أو تستمعُ له في إنصاتٍ حقيقيٍّ أو تمنحُه بعضَ الاهتمامِ أو التفهُّمِ؛ فإنَّك تُعطِي مِنْ نعمِ اللهِ عليك؛ فهو الذي ألْقى المحبةَ والرحمةَ في قلبِك لتستمِعَ لهُ، وهوَ الذي ألقَى المحبَّةَ في قلوبِ الخلقِ ليكونَ لك وجاهةٌ ومنزلةٌ في نفوسِهم، ولو شاءَ لأسقطَكَ مِن أعيُنِهم فجعَلَك ممَّن لا يُؤبَهُ لهُ. فانتباهُكَ لوجودِ هذهِ النعمِ عندَكَ أولُ طريقِ العطاءِ.

أمَّا الحبُّ فلأنَّ الإنسانَ أسيرُ أنانيتِهِ؛ ينشغلُ بنفسِه فلا يفرغُ لغيرِهِ، ويخشَى أن يشاركَه غيرُه الطعامَ والمالَ فيَكْنِزَه ويدَّخِرَه، يريدُ دومًا أن يستمعَ الجميعُ لآلامِه وقصصِه، أن يكونَ هو الحاضرَ في اللحظةِ والمهيمنَ على المشاعرِ، فإنْ رقَّ قلبُه لحبيبٍ بدأتْ أنانيتُه في الانزواءِ، وسمحَتْ نفسُه بالعطاءِ.

وكلَّمَا بحثْنَا أكثرَ عن حاجاتِنا زادتْ أنانيتُنا وقوِيَ شَرَهُ نفوسِنا، فنحنُ في العطاءِ نتطهرُ من هذه الأثرةِ والأنانيةِ التي تحبسُنا في سجنٍ ضيِّقٍ لا نبصرُ فيه سوى ذواتِنا.

ومِن الأنانيةِ أن ننتظرَ مِن الجميعِ أن يُحبُّونا، ويهتمُّوا بكلامِنا، ويواسُونا في أحزانِنا، لا أعني انتظارَ الصديقِ لحَقِّه عند صديقِه من المؤازرةِ والاهتمامِ، فذلك لا بأسَ به، ولكن أعني أننا ننتظرُ دومًا الاحتواءَ والعطاءَ من الآخَرين، حتى ولو أهمَلْنا نحنُ العطاءَ لهُم، وتجاهَلْنَا حاجتَهُم إلينا التي هيَ كَحَاجَتِنَا إليهم.

في هذه اللحظاتِ التي ننتظرُ فيها مِنَ الآخرينَ شعورًا ما دونَ أنْ نكونَ قد قدَّمْنا شيئًا، فإننا في الحقيقةِ نكونُ أكثرَ انشغالًا بأنفسِنا، واستغراقًا في أنانيَّتِها.

بلْ حتى عندما نُقدِّمُ الكثيرَ وننتظرُ الردَّ فإننا في الحقيقةِ لا نُقدِّمُ سوى تجارةٍ سطحيةٍ لا تنخدعُ بها القلوبُ!

فالقلوبُ لا تعرفُ إلا الصدقَ، فتشعرُ بمَن يُعطيها لمحبتِه لها، وبمَن يُعطيها ليأخذَ منها عِوضًا.

لا أطلبُ منك ألا تهتمَّ بشأنِك، بل أطلبُ منك ألا تستغرقَ في همِّك، بل حتى في أوقاتِ مُشكلاتِكَ وهمومكِ. يَسَعُكَ أنْ تَنْشَغِلَ بغيرِك، فإنْ فعلْتَ فستجدُ في قلبِك انشراحًا وسَعةً، يُعِينانِه على تحمُّلِ آلامِه ومصاعبِه.

فنفسُك سِجنُكَ، ومفتاحُه العطاءُ، فإنْ أردتَ الحريةَ لروحِك فأَطْلِقْها مِن أسْرِ نَفْسِكَ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الوُجُودُ

مَن نحنُ؟ وكيف نُدرِكُ وجودَنا؟

جمعَنِي حديثٌ ببعضِ الأصدقاءِ الجُدُدِ فبدأَ الجلوسُ في التعارفِ، وجدتُهُم يذكرونَ وظائفَهم وأعمالَهم وأطفالَهم، فلمَّا جاءَ دوري شعَرْتُ أنَّ هذه المُعرِّفاتِ لا تُعرِّفُني!

إنني لستُ وظيفتِي، إنها مهمةٌ أُؤَدِّيها في جزءٍ مِن يومي، ولكنِّي أجدُها لا تُعرِّفُني، ربما لو كانتْ تأخذُ مِن رُوحي واهتمامي أكثرَ لصارتْ جزءًا منِّي كاشفًا عن شخصِي، ولكنْ في كثيرٍ من الأحيانِ تكونُ وظائفُنا مجردَ روتينٍ نفعلُه لأكلِ العيشِ أو القيامِ بالواجبِ.

اللحظاتُ التي أُدْرِكُ فيها نفسِي عندما أَجْلِسُ معَ صديقٍ نتحدثُ في مشاعرِنا وقصصِنا وذكرياتِنا، عندما نرحلُ إلى ذواتِنا فإننا نكتشفُها، عندما نخلعُ وظائفَنا من حكيمٍ وشيخٍ ومُعَلِّمٍ، ونتحدثُ حديثَ القلوبِ والأرواحِ، حينَها أشعرُ بوجودي، وأشعرُ بنفسي.

قلتُ لبعضِ أصدقائِي يومًا إنِّي أشعرُ أنَّ ثمةَ مَن ينتحلُ اسمي ليخرجَ إلى الناسِ مُعلمًا وشارحًا، إنَّه ليس أنا، شخصٌ آخرَ يعرفُه الناسُ ولا أعرفُه! اعترضَ صديقي على هذا بأنَّ ذلكَ الشخصَ جزءٌ منكَ، قلتُ: بل قشرةٌ تظهرُ للناسِ، ولستُ أنا، قشرةٌ تحجبُهم عن رؤيتِي، وعن الشعورِ برُوحِي.

فوجُودِي هو شعُورِي، وبقدرِ ما أشعرُ بنفسِي بقدرِ ما أدركُ وجودِي، وشُعوري بنفسي لا يكونُ إلا عندما يتحركُ القلبُ بالمشاعرِ، ويتحركُ بالأفكارِ التي صنعتْه، والمعتقداتِ التي رسمتْه، وبالتجاربِ التي شكَّلتْ روحَه ووعيَه، حينَها يتحولُ الإدراكُ المتعلقُ بالخارجِ إلى إدراكٍ داخليٍّ، يرحلُ في عالمِك، هذا العالمُ لا يفتحُه إلا شخصٌ أعطاكَ سمعَه ليُصغيَ إلى قلبِكَ، ويسمعَ ألمَك أو فرَحَك، أو ما يَشغلُ بالك، أمَّا عندما نتحدثُ في العلمِ والأخبارِ والشئونِ العامةِ، فإننا نتحدثُ عن شيءٍ خارجَ حياتِنا لا عن حياتِنا.

قلتُ مرةً أننا نتعصبُ إن هاجمَ أحدُهم أفكارَنا، لأن أفكارَنا هي ذواتُنا في الغالبِ، وعندما نشعرُ أنَّها مرفوضةٌ فإننا نشعرُ أنَّ الرفْضَ مُوَجَّهٌ إلَيْنَا لا إلَى أفكارِنا، وقلتُ حينَها إننا لسْنَا أفكارَنا، والآنَ تجدُني أقولُ إنَّ شعوري بنفسي لا يكونُ إلا عندَما يتحرَّكُ القلبُ بالأفكارِ التي صنعتْه، فهل تناقضْتُ؟

كلّا، فأفكاري قد تتغيَّرُ، ولكنَّ رحلتِي في بناءِ هذهِ الأفكارِ، وتجربتِي هي التي صنعَتْني، فالأفكارُ التي عشتَ معها وبها تُعطيك شعورًا بالحياةِ وتفاعلًا معها

ووعًيا بها، إنها أشبهُ باللغةِ التي تُخاطبُ بها الوجودَ، ولكنْ هيَ نفسُها ليستِ الوجودَ.

ثمةُ أفكارٌ تبنيتُها قديمًا، وتركتُها اليومَ، ولكنِّي أعتزُّ بها، إنها تُشبِهُ سيارتَك القديمةَ وبيتَك الأولَ.

نعم، أشعرُ بالوجودِ عندما أدركُ عالَمي الداخليَّ، وتاريخِي المحفورَ في ذاكرتِي. والذاكرةُ لا تحوي الأحداثَ إلا بقدرِ ما حملَتْه من مشاعرَ، فالمشاعرُ هي الأحداثُ الحقيقيةُ، والوقائعُ مجردُ ظلٍّ لها، فإن أردتَ جوابًا عن السؤالِ الذي افتتحتُ به الكلامَ فأقولُ: لتعرِفَني اصْحَبْني، وبقدرِ ما تشعرُ بهِ من رُوحي ونفسي ستعرِفُني، كما أني أُدْرِكُ الوجودَ بقدرِ شعوري بهِ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اللذاتُ والمُباحاتُ

النفسُ كالدابةِ، إنْ سرتَ بها سيرًا متواصلًا ضعُفَتْ وهلَكَتْ، وإن حبستَها سَمِنَتْ وكلَّتْ مفاصلُها، وعجزتْ عن السيرِ والحمولةِ.

فمِنْ لطفِ اللهِ أنْ شرعَ المباحاتِ، وأتاحَ للإنسانِ الكثيرَ مِن الملذاتِ، لا ليكونَ لها عبدًا تُحَرِّكُهُ ولها يخضعُ، بل ليستعينَ بها على سيرِه، ويستأنسَ بها في رحلتِه.

ولكن شتَّانَ بينَ مَن يطلبُ مرادَ نفسِه أولًا، فإنَّ نالَه سارَ، وبينَ مَن يسيرُ فإنْ لحِقَه التعبُ استراحَ ببعضِ المباحِ.

والغالبُ في أحوالِنا هو البحثُ عن المتعةِ واللذةِ، تقولُ: ما الضررُ وأنا لا أعصِي؟ وذلكَ حقٌّ الآنَ، ولكنِ الإسرافُ في متابعةِ الطبعِ مَخوفُ المخاطرِ، وقد قالُوا في الأمثالِ: «سمِّنْ كلبَكَ يأكُلْكَ» أي أكثِرْ مِن إطعامِ حيوانِكَ المتوحشِ حتى يفتكَ بكَ.

والنفسُ هكذا، وفتكُها بك أن تصيرَ لها عبدًا، كقصةِ السندبادِ الذي حملَ رجلًا مُسنًّا على كتفِه، فأطبقَ الرجلُ بساقينِ قويتينِ على عنقِ الفتى حتى عجزَ أن يتخلصَ من جلوسِه على ظهرِه وصارَ له عبدًا، فلم ينفكَّ من سطوتِه إلا عندما سقاهُ خمرًا.

وخمرُك هنا أن تُضعفَ سطوتُها وتقطعَ شهوتَها، فإنَّ النفسَ يقظتُها في طلبِ لذَّتِها، فما دمتَ تمدُّها بما تريدُ فأنتَ تَزيدُ في قوتَها، فإنْ شغلْتَها بالحقِّ، وحملتَها على الجِدِّ فقد فكَكْتَ أَسْرَكَ، وتخلَّصْتَ من سجنِكَ.

ليس الكلامُ على رهبانيةٍ تنقطعُ فيها الرقابُ، بل الكلامُ على سياسةٍ تقودُ فيها ولا تَنْقَادُ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان أحدُ الصالحينَ يقولُ لتلميذِه: «لا أذاقكَ اللهُ طعمَ نفسِك، فإنَّك إنْ ذُقْتَه لا تُفلِحُ أبدًا!»؛ ذلك أنّ الدنيا مُمْتِعةٌ، بحلالِها وحرامِها، والنفسُ تشتهي المُتْعَةَ وتتعلقُ بها، فإنْ ذاقتْ طعمَها تعلَّقَتْ بها، وطلبتِ المزيدَ، فما تزالُ تسعَى في إشباعِها وهيَ لا تشبعُ، ثمَّ تُعلِنُ عن ثورتِها بنفرتِها مِن كلِّ إلزامٍ، وسعيها إلى كلِّ متعةٍ متاحةٍ.

مع الوقتِ ستجدُ نفسَك سريعَ الملَلِ، كثيرَ البحثِ عن السرابِ، لا تُطيقُ صبرًا على عملٍ ولا على مهمةٍ لا لذَّةَ فيها، فكأنَّ اللذةَ صارتْ مطلوبَكَ ومحبوبَك، تحيا بِها ولَها، وما أكثرَ ما كان هذا في المباحِ!

وكثيرٌ من العباداتِ الصرفةِ - كالقرآنِ والذكرِ والصلاةِ - أعمالٌ لا تشعرُ فيها بنشاطِ النفسِ، ويندرُ أن يتلذَّذَ بها إنسانٌ، بخلافِ أعمالٍ كالأنشطةِ الخيريةِ، والتحرُّكِ يمينًا وشِمالًا في البلادِ، فإنها لا تخلو من نَوعِ لذةٍ وشعورٍ بالإنجازِ، لذا كنَّا في أولِ شبابِنا ننشطُ لها كثيرًا، ونقعدُ عن الأولَى أكثرَ، ولا يعوزُنا حينها المبررُ من شهادةِ الشرعِ لفضلِ العملِ الذي ينفعُ الغيرَ عن العبادةِ، فلمَّا انشغلْنا بالدنيا، والكدحِ، وعجزتْ قدرتُنا عن مثلِ هذه الأعمالِ لم ننهض لعبادةٍ، ولا انشغلْنَا بركعاتٍ يسيراتٍ، بل زادَ انشغالُنا بنفوسِنا، واتضحَ لنا شدةُ غفلتِنا عن ترويضِها، وحملِها على الواجباتِ وإن كانت تكرهُها، وشغلِها بالمسؤولياتِ وإن كانت تفرُّ منها.

والأصلُ الذي أعرفُه أنَّ الإنسانَ الذي يغرقُ في إشباعِ نفسِه تزدادُ أنانيتُه، وتتعاظمُ سطوةُ نفسِه عليه، فتخرجُ من وظيفتِك كإنسانٍ يسعَى لأُخراهُ إلى إنسانٍ يسعى لحاضرِه، لا أعني مُجَرَّدَ دنياهُ المستقبلَةِ وأحلامِه، بل يعبدُ اللحظَةَ الراهنةَ، يريدُها كاملةً ممتلئةً بالنشوةِ والسعادةِ.

ونحنُ لا نعيشُ لحاضرِنا، بل لغدِنا بحاضرِنا، نأخذُ من الوقتِ ما يقتضيه، فَإِنْ تَعِبَ الجسدُ أرحْنَاهُ ليواصلَ المسيرَ، وإن نفهتِ النفسُ وملَّتْ رَوَّحْنا عنها لتواصلَ العملِ. فالحاضرُ زادُنا للغدِ، ولكنْ حياتُنا الحقيقيةُ هناك في الآخرةِ. لا أتحدثُ عن رهبانيةٍ ورفضٍ للدنيا، بل أعني أنَّ الراحةَ الموعودةَ تكونُ عندَ انتهاءِ العملِ!

فالمباحاتُ زادٌ لا مقصودٌ، واللذاتُ لا تتمحورُ حولَها الحياةُ، فإنْ جعلتَ محورَ حياتِك الآخرةَ أو حتى الدنيا بعملٍ وكَسْبٍ ترجُوه فيها ستتخلَّصُ من سطوةِ الحاضرِ التي وقعتِ النفسُ في حبائلِها.

وأعلمُ أنَّ الفضيلةَ وسطٌ بينَ رذيلتيْنِ، فثمةَ مَن بالغَ في المعنى الذي ذكرْناه حتى أهملَ الحاضرَ بالكليةِ، وأخَّرَ كلَّ متعةٍ ولذةٍ للغدِ، ولهذا كانَ ما بدأتُ به الكلامَ هو ما ينبغي أن أُنهِيَهُ به.

فالمباحُ للحاضرِ زادٌ لراحةِ المستقبلِ، فلا تُهملِ الزادَ فتهلكَ، ولا تُكثِرْ منه فلا ترحلَ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

درجاتُ الناسِ

ليس الناسُ في حياتِك على مرتبةٍ واحدةٍ ثابتةٍ، فما أكثرَ مَن عرفْتُ مِن أناسٍ ظننْتُ فيهم الثقةَ والحبَّ، فإذا بمرورِ الأيامِ يَكشِفُ عن خبثِ طواياهُم أو عدمِ صدقِ نواياهُم!

في حياتي عددٌ من الأصدقاءِ، صحبتُهم على مضضٍ أولَ الأمرِ، لظروفٍ أو حقوقٍ اقتضتِ الصحبةَ - لا عنِ اختيارٍ منِّي - فإذا بالأيامِ تَزيدُهُم قربًا، وتكشفُ عن مَعدِنِ صدقٍ حقيقيٍّ، وعن توافُقٍ أكثرَ من الاختلافِ الذي كانَ يبدو أوَّلَ الأمرِ، فإذا بِهِم يخترقونَ صُفوفَ المعارفِ، ليقفُوا في مصافِّ الأصدقاءِ المقرَّبينَ!

نعم.. يتقدَّمُ هذا ليتأخرَ ذاكَ، فإذًا باختياراتِنا في أوِل الأمرِ يتكشّفُ قصورُها وضعفُ بصرِها.

فما الذي جَدَّ؟ هل هي النفوسُ تتغيرُ أم إنَّها تظهرُ؟ ما أراه دومًا أنَّ تقلُّباتِ الحياةِ وفُرَصَها هي كواشفُ عن حقيقةِ النفسِ التي ربما تَخفى حتى على صاحبِها.

منذُ سنواتٍ حكَوْا لي عن مؤذّنِ المسجدِ ذي الصوتِ الحسَنِ، الذي صارَ يُغنِّي وراءَ الراقصاتِ في الحاناتِ.

وفي مسجدٍ آخرَ أشاروا إلى هذا الرجُلِ المُجِدِّ في العبادةِ، وقالوا كان يعزفُ الآلاتِ وراءَ المُغنِّياتِ في الحفلاتِ، وقد بلغَ في مجالِه مبلغًا عظيمًا يُطلَبُ فيه بالاسمِ.

هكذا رأيتُ الناسَ بين يدَيِ اللهِ، إدبارًا وإقبالًا، صَحْوًا وغفلةً، قُرْبًا وبُعدًا!

ولماذا نذهبُ بعيدًا، وهذه نفسي شاهدةٌ على هذا، أينَ لحظاتُ البكاءِ الصادقِ من الخوفِ التي عرَفْتُها مِن نفسِي في أولِ رمضانَ أُصَلِّي فيه التراويحَ كاملةً؟!

وأينَ جهلُ الأمسِ الذي غرَّنِي بنفسي حتى ظننتُ بها فَهْمًا لِمَا لا تفهمُ، وقدرةً على ما لا تعلمُ؟

ذهبَ هذا وذاكَ، تأخَّرْتُ في شيءٍ وتقدَّمْتُ في آخَرَ، فلا الحالُ هو الحالُ، ولا الإنسانُ هو الإنسانُ.

وهكذا، تتبدلُ الدنيا كلُّها، وفي تبدُّلِها تثورُ البذورُ الكامنةُ في النفسِ من غضبٍ أو سخطٍ، أو تُبذرُ بذورُ الخيرِ من رضًا وإيمانٍ وتفويضٍ.

حكَى لي سائقُ الأجرةِ - وقد بدَا مِن هيئتِه سابقُ العزِّ والغِنى - عن ثروتِه التي فقدَها في الثورةِ، كما أخبرَنِي عن ذنبِه الذي فارقَه بفقرِه.

رأيتُ المآسِيَ تصنعُ الإنسانَ؛ فتجعلُه قويًّا ناضجًا شاكرًا للنعمةِ، حافظًا للجميلِ، أو تهدمُه فتحيلُه ركامًا من نفسٍ مُدمّرةٍ وقلبٍ يائسٍ.

ورأيتُ الدنيا تُقبِلُ على الناسِ فتُظهِرُ أصالةَ الأصيلِ، وحُسنَ مَعْدِنِه، فيوفي الحقوقَ ويشكرُ من أعانَ، وتُظهِرُ خِسةَ الخسيسِ فيتنكرُ لماضيه وأمِّه وأبيه.

تبدُّلُ الأيامِ يُقْسِي أو يُنْسِي، وربما يُحْيِي ويُذكِّرُ.

فلا الناسُ يَبْقُونَ علَى درجةٍ واحدةٍ، ولا أنتَ تَبْقَى على حالٍ واحدةٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المُقدِّمُ والمُؤخِّرُ

هل رأيتَ في الدنيا إلا التغيُّرَ؟!

وهل الأمسُ كاليومِ؟

نعم، أشرقَتِ الشمسُ اليومَ كما أشرقتْ بالأمسِ، ولكنْ هل دورتُها إلا دورةٌ جديدةٌ تُنقِصُ عددَ ما بقِيَ مِن دوراتِها!

وهل الناسُ الذينَ أشرَقَتْ عليهِمُ اليومَ حالُهُم كالأمسِ.

أذكُرُ فقرَ الأمسِ، وعجزَ حيلتي معَ مَنْ أُحبُّ، وأتأملُ يُسرَ حالِ اليومِ، وكثرةَ العونِ الذي يصلُنِي.

أترى هذا التبدُّلَ في أحوالِ القلبِ والدنيا، يسيرُ عبثًا بلا مَن يعتني به، ويُدَبِّرُ الأمرَ في الأرضِ والسماواتِ؟ هيهاتَ!

أراهُ في كلِّ دورةٍ من دوْراتِ الحياةِ، أراهُ يضعُ هذا، ويُعِزُّ ذاكَ، ويُبدِّلُ الأحوالَ، ويُقسِّم الآجالَ.

والمعاملةُ معه - سبحانَه - تنضجُ بمرورِ الأيامِ، فإمَّا أن تقوَى وتشتدَّ ثباتًا، وإمَّا أنْ تضمرَ وتزدادَ إخفاتًا.

فأنتَ كالأرضِ يقلبُها الزارعُ، يزرعُها تارةً بالبرسيمِ ليقوِّيَها، وتارةً بالأرزِ ليجنيَها ويُنَمِّيَها.

فمعدنُك لا يظهرُ إلا بما يتبدَّلُ عليك مِن الأحوالِ، وتُختبَرُ فيه من الأعمالِ.

بل والدنيا لا تستقيمُ لو استمرَّتْ على حالٍ!

أمَا ترى الحضاراتِ الضخمةَ، وقد استولتْ على الرقابِ والعبادِ حتى يئسَ الخلقُ من الخروجِ من سطوتِها، وظنُّوا ألا نجاةَ من هيمنتِها!

أينَ الفراعنةُ والبطالمةُ والفرسُ والرومُ، أين قياصرةُ روسيا ورؤساءُ السوفيتِ؟

ذهبُوا في دوراتِ الزمنِ، وورثَهم آخرونَ، وغدًا هؤلاءِ أيضًا يذهبونَ.

نعم.. يُقلِّبُ اللهُ الليلَ والنهارَ، ويُبدّلُ الزمانَ، □ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ □ □ □ □ □ □ □ □ □، وقد يكونُ أمرُ اللهِ في صورةٍ خارقةٍ كالرياحِ العاتيةِ، والخسفِ والمسخِ، وقد يكونُ باجتياحِ أمةٍ لهم، وأفولِ دورةٍ من دوراتِ الزمنِ.

فإن وجدتَ تقدُّمَ الشرِّ في جانبٍ فستجِدُ الخيرَ زاحَمَهُ في آخرَ.

ولا تشرقُ الشمسُ على جانبٍ من الأرضِ إلا وتغربُ على آخرَ.

فإنَّ قدّمَك في صفوفِ الطائعينَ، أو أقامَك بينَ العابدينَ، فقَدْ منحَكَ وتفضَّلَ عليك، وإن أخَّرَكَ في صفوفِ العصاةِ والغافلينَ فقد امتحنَك وتعززَ عليك.

والكَيِّسُ يعبدُه على كلِّ حالٍ، ولا يقطعُ أملَه في تبدُّلِ الحالِ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قُصُورُ الإدراكِ

ما أعظمَ الضعفَ الإنسانيَّ!

يفاجئُك النومُ وأنتَ في أشدِّ الحاجةِ لساعةٍ لإنجازِ عملٍ أو مذاكرةٍ، ويطيرُ منك النومُ وأنت في أشدِّ الحاجةِ لساعةٍ من الراحةِ استعدادًا ليومٍ جديدٍ، أو سفرٍ بعيدٍ.

وفي كلٍّ، أنتَ بينَ غفلةِ نائمٍ، أو حسٍّ قاصرٍ.

لا تكادُ تعلمُ - إن كنتَ يقِظًا سليمَ الحواسِّ - ما وراءَ الجدارِ فضلًا عمَّا تناءَتْ به الديارُ!

فإن أخْلَدْتَ إلى النومِ، زادَ قُصُورُ حواسِّكَ قصورًا، وزادتْ مجهولاتُكَ من الحوادثِ والأخبارِ، فلا تكادُ تدركُ إلا صراخَ مُوقِظٍ، أو أحلامَ نائمٍ.

هذا أنت عاجزٌ عن إدراكِكَ لِمَا حولَك، لقصورِ حواسِّك وكثرةِ عوارضِها، لا تكادُ تُدْرِكُ إلا القليلَ مِن حولِك، والناسُ إذا أرادُوا أن يضربُوا المَثَلَ لليقظِ المتنبِّهِ قالوا: «عيناه في وسطِ رأسِه، كأنَّها تدورُ في الجهاتِ الأربعِ» لعلمِهم بعجزِنا عن حفظِ نفسِنا من أن نُغتَالَ من خلفِنا.

وفي قصورِنا هذا لا ننتبهُ لأقربِ الأمورِ إلينا، فلا ننتبهُ لغفلتِنا، ولا لذنبٍ أصبْنَاه، فنتكلمُ بما لا نُلقي له بالًا وهو عندَ الله عظيمٌ، ونَغْفُلُ عَن أعمارِنا، وهي تمضِي إلى غيرِ رجعةٍ.

بل أقربُ الناسِ إلينا ربما لا ننتبهُ لأحوالِهم وظروفِهم ومشاعرِهم، فننحصِرُ في دائرةٍ محدودةٍ مِنَ الإدراكِ.

فإنِ اتسعَتْ رؤيتُك في يومٍ، ووقفْتَ على ما كنتَ عنه غافلًا، فهي منحةٌ إلهيةٌ.

والآفةُ أننا - على الرغمِ من هذا القصورِ - نظنُّ أننا وقَفْنا على أسرارِ الكونِ، وأحطْنَا علمًا بالوجودِ!

في كلِّ يومٍ يزدادُ يقيني أنَّ ما أجهلُه أكثرُ مما علمتُه، وأن ما فاتَني أضعافُ ما أدركتُه.

مع الوقتِ توقفتُ عن طلبِ الإحاطةِ بكلِّ شيءٍ، بل غايةُ مرادي الانتباهُ لأهمِّ شيءٍ في كلِّ وقتٍ.

إن جلستُ مع صديقٍ فلا أطلبُ معرفةَ ما في قلبِه وكشْفَ ما سترَه، بل حسبي أن أبذلَ غايةَ الوسعِ في فهمِ كلامِه والشعورِ بمرادِه، وإن قمتُ بين يدي الله فحسبي الآنَ تعقُّلُ كلماتي الَتي أردِّدُها بلساني، وفهمُ مقامي.

وهكذا لم أعُدْ أطلبُ في العلومِ الإحاطةَ بها، بل الوقوفَ على المهمِّ منها، ولا أهمَّ مما تحتاجُ إلَيْهِ، وأحوجُ ما تطلبُه ما تُطالَبُ به.

فإنْ أنارَ اللهُ يومًا بصيرتَك فتنبَّهْتَ لأمرٍ، أو فَهِمْتَ إنسانًا، فهي نعمةٌ عُجِّلَتْ إليكَ، فإنَّ مَن كان شأنُه الجهلَ، لا يعلمُ إلا بالتعليمِ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بينَ الأمسِ واليَوْمِ

هل أنا كما كنتُ بالأمسِ؟

بالتأكيدِ لا أتحدثُ عن طولي وشكلي، بل عن قلبي وحالي، هل النفسُ هي النفسُ؟ وهل ترقَّيْنا عن الأمسِ أم ازدادتِ النفسُ شرودًا وابتعادًا، وتبدلتِ الرقةُ قسوةً، وهجرَ القلبَ حبٌ وسكنَه آخرُ؟

أراني بالأمسِ أكثرَ جهلًا، وأقلَّ فهمًا، الحَيْرةُ أكثرُ مِن اليومِ - والجهلُ حيرةٌ - ولكنَّ القلبَ أشدُّ رقةً، وأقربُ صدقًا.

ربما كان طلبُ المعرفةِ يورِثُ الرقةَ، فالمتعلمُ يفتحُ قلبَه لقلمِ التعليمِ لينقُشَ فيه ويرسمَه، والقلبُ المتأهبُ للقبولِ أنقى وأوسعُ مِن ذَلك الذَي امتلأ وازدحمَتْ فيه المعاني.

والعلمُ سطوةٌ وقوةٌ، فكلما علمتَ شيئًا فقدْ استوليتَ عليه، وشعَرْتَ بقهرِكَ له!

أنت أضعفُ ما لم تعلمْ، فإن علمتَ فقد استغنيتَ وزهدتَ!

ألا ترى المهندسَ يسهَرُ ليلَهُ ونهارَهُ في معرفةِ موضعِ عطلٍ في آلتِه، فإن أدركَه وطالَ فهمُه لها حتى لا تشردَ عنه شاردةٌ مِن أعطَالِها، تراهُ كالمستخفِّ بها، وربما ينشغِلُ بغيرِها؟

نعم.. العلمُ بالشيءِ يُعطيك قهرًا له واستيلاءً عليه، فإن ازدادتْ معارفُك ازدادتْ جوانبُ سطوتِك واتسعَ نطاقُ مُلكِك.

لهذا تتسرَّبُ القسوةُ شيئًا فشيئًا إلى قلوبِنا كلما كَبِرْنَا وتعلَّمْنَا. كُنَّا بالأمْسِ أطفالًا؛ نخافُ الظلامَ ونخافُ ما وراء أحضانِ الأهلِ، فلمَّا كبِرْنا، وعرَفْنا أنَّ الظلامَ لا يُخِيفُ، وأنَّ الغريبَ ضعيفٌ كضعفِنا، لمْ نعُدْ نخافُ، والخوفُ رقَّةٌ في القلبِ زالتْ.

حَيْرَتُنا في الآراءِ والمذاهِبِ، تَحسِمُها قراراتُنا الفاصلةُ، واختياراتُنَا الحاسِمَةُ، ولكن يصحبُها التعصبُ والازدراءُ بالمخالفِ!

ألم نكنْ بالأمسِ نفكرُ في مذهبِ المخالفِ كاحتمالٍ نُرجِّحُ بينَه وبينَ مذهبِنا الذي اخترناه اليومَ قبلَ أن نختارَه، فكنَّا لا نرفضُه هذا الرفضَ، ولا نقفُ منه هذا الموقفَ الشديدَ؟

فكان تسامحُ الأمسِ لجهلِنا، وتعصبُ اليومِ لعلمِنا، والتسامحُ رقةٌ في القلبِ زالتْ.

وماذا عنِ الحبِّ؟ هل قلبٌ أحبَّ وفارقَ كقلبٍ ما يزالُ يسعدُ ببقاءِ محبوبِه؟

وهل من مرَّ بقسوةِ الغدرِ مِن محبوبٍ أو ذاقَ مرارةَ كسرِ الخاطرِ مِن صديقٍ، كمَن لم يذُق هذه الكأسَ، ولم يتجرعْ مرارَ المشاعر؟

ربما صرتُ أكثرَ حرصًا في علاقاتي، وربما صرتُ أكثرَ بخلًا وضنًّا بمشاعري خشيةَ خيبةِ الأملِ أو كسرِ الخاطرِ.

قد أنظرُ لِمَا اكتسبتُه مِن معرفةٍ أو خبرةٍ في الحياةِ، أو قوةٍ في البدنِ أو استغناءٍ بالمالِ، ولكنك لا تكتسبُ شيئًا إلا بفقدِ أشياءَ، ولا تأخذُ مِن الدنيا إلا بقدرِ ما تُعطيها!

فلا تفارقُ الفقرَ إلا بفراقِ الوقتِ والفراغِ، ولا تفارقُ الضعفَ إلا بفراقِ الراحةِ والدعةِ، ولا تفارقُ الجهلَ إلا بفراقِ المالِ وراحةِ البالِ!

في المجملِ تغيَّرنا، ونتغيرُ باستمرارٍ، بينَ قوةٍ وضعفٍ وقوةٍ، وبين مرضٍ وصحةٍ، وحَيرةٍ وخِبرةٍ، كأنَّ الحياةَ ميدانٌ عظيمٌ لا يفرغُ من ناسٍ حتى يشغلَه آخرونَ، يذهبونَ في جهاتٍ شتَّى، ويتحركونَ في أغراضٍ مختلفةٍ.

لا أميلُ إلى أن أقولَ أنَّ اليومَ أفضلُ من الأمسِ أو بالعكسِ، إلا باعتبارِ شيءٍ معينٍ، وحيثيةٍ مُقيَّدةٍ.

نعم.. ربما أرى في العلمِ أشرفَ المكاسبِ؛ فلا أقارنُه بفقْدِ مالٍ، وربما رأيتُ في حسنِ صحبةِ أهلِ اليومِ ما يُغني عمَّا فقدتُ من أحبابِ الأمسِ، فكان تفضيلي لزمانٍ على آخرَ إجمالًا أو تغليبًا، والتغليبُ لا ينفي التفصيلَ، وفي التفاصيلَ - لا محالةَ - تفاوُتٌ.

الثابتُ في هذا كلِّه أنَّ التغيرَ مستمرٌّ، وأننا نسيرُ إلى غيرِ ما نحنُ فيه، وغايةُ المرادِ أن نبلُغَ السلامةَ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«وَهُوَ الآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ»

لا تَزيدُه الأيامُ، ولا تُنقِصُه الأزمانُ، فإنما يتغيرُ مَن يستكملُ بغيرِه ما ليس فيه.

هو خالقٌ للوجودِ، فكلُّ ما فيه من حركاتٍ وسكناتٍ منه وإليه.

كانَ، وهو الآنَ على ما عليه كانَ، أفعالُه لا تزيدُ في صفاتِه، وصفاتُه لا تُستكمَلُ بأفعالِه.

لا يزدادُ في مرورِ الأيامِ علمًا بنا، ولا ينتظرُ ظهورَ أعمالِنا ليُحيطَ بنا علمًا.

فأعمالُنا حجةٌ علينا، وشاهدةٌ بما انطوَتْ عليهِ قلوبُنا، فما ظهرَتْ إلا لنُحاسَبَ عليها وتوزنَ علينا، لا ليعلمَنا أو يعلمَ إيمانَنا، كيف وهو علَّامُ الغيوبِ!

الأولُ لا يتغيرُ، والآخِرُ هو الأولُ.

ربما شعَرْنَا بتغيرٍ في عَلاقتِنا معه، وهذا حقٌّ؛ فهو يُدنِيكَ ويُقصِيكَ، ولكنه واحدٌ لا يتغيرُ بك، ولا ينتقصُ بقربِك أو يزدادُ شيئًا ببُعدِك، فشتَّانَ بينَ تغيُّرِ فعلِه وبينَ تبدُّلِ وصفِه، ففي الفعلِ: كلَّ يومٍ هو في شأنٍ، وفي الوصفِ: لا زيادةَ أو نقصانَ.

ولكنَّ الدنيا حجابٌ لكَ عن مرادِه، فلا تدري على وجهِ اليقينِ أكانتْ مصيبتُك ابتلاءً مبتدَأً أم عقابًا على ذنبٍ سبَقَ؟

ولن تعلمَ على وجهِ اليقينِ أهذهِ النعمةُ التي سِيقَتْ لكَ منحةٌ أم استدراجٌ؟

نعم، إرادتُه خَفِيَتْ في أفعالِه، وأفعالُه عسُرَ على الفهمِ الوقوفُ على سرِّ مرادِه، إلا أنَّه أظهرَ لكَ ما أرادَه منك في شرعِه، وطوَى عنك ما أرادَه بك في قضائِه وقدَرِه، فإن امتثلتَ بما أرادَه منك فقد سلَّمتَ ما عليك، وإن أدمتَ التفتيشَ عمَّا أرادَه بكَ فقد انشغلتَ بما هو له، فتُهْتَ في صحْراءِ الوهمِ، وعصَفَتْ بكَ رياحُ الظنِّ، فسَلِّمْ تَسْلَمْ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نَقْضُ العَزَائِمِ

تنوي أن تصومَ الغدَ، فتستيقظَ وقد فترتْ عزيمتُك ووهنتْ إرادتُك، تعزمُ على الصلاةِ في المسجدِ، فتسمعُ المؤذنَ فكأنَّ المسجدَ تباعدَ، وشعرتَ بثقلِ الطريقِ.

ليس الأمرُ بكسلٍ أو لا مبالاةٍ، ولكنَّ الأمرَ تثبيطٌ للهمِّ ونزعٌ للإرادةِ، كأنَّ الأمرَ من خارجِك، وكأنَّ إرادتَك كيسٌ امتلأَ هواءً ثم شكَّه دبوسٌ فجأةً.

لو كان الأمرُ قرارًا مُسبقًا بألا تفعلَ لهانَ الأمرُ، أو كان كسلًا عارضًا أو مستمرًّا لفهمتَ ما يحدثُ، ولكنَّ الأمرَ أشبهُ بجبرٍ خارجيٍّ، وبقهرٍ علويٍّ!

نَعَمْ، إرادتُنا قد تُسلَبُ في لحظةٍ؛ لتعلمَ أنه ليس لك من الأمر شيءٌ، وأنَّ السيرَ إليه فضيلةٌ قد يُحالُ بينك وبينها وقْتَما يريدُ، وليس بابًا تدخلُ منه عليه وقتما تريدُ، فهو العزيزُ المتعالُ سبحانَه.

وأُخبرُكَ بسرٍّ صغيرٍ وجدتُه من نفسي، وهو أنَّ معظمَ السلوبِ هذه نتيجةُ استهانةٍ سابقةٍ، فأمرُ الأدبِ معه

- سبحانه - خطيرٌ.

إنَّ بعضَ الفرصِ تُمنَحُ، وتأتيكَ بلا سبقِ تدبيرٍ منك، فإنْ لقِيتَها باستهتارٍ وقلةِ اكتراثٍ أورَثَتْ ما وصفْنَاه، وأتبعَها منعٌ قد يطولُ أمدُه.

بل أذهبُ إلى أبعدَ من هذا، فقد كنتُ قديمًا ربما أعتذرُ عن موعدِ درسٍ أو بابِ خيرٍ لمجيءِ صديقٍ حبيبٍ أُحِبُّ مجلسَه وأشتاقُ إليه، فحُرِمتُ من انتظامِ الدروسِ لعامَيْنِ أو يزيدُ.

ليس الأمرُ علاقةً نديَّةً معه - سبحانَه - يقفُ لنا فيها على الخطأِ، ويُعاقبُ دومًا على الزلةِ، بل هو - سبحانه - يعفو عن كثيرٍ، ولكنَّ اللهَ - سبحانه - أيضًا يعاملُنا بصفاتِه، وقد يتجلَّى على العبدِ بصفةِ العزيزِ فيوصِدُ أمامَه أبوابَ العملِ والمثولِ بين يديه، فلا محيصَ من الدخولِ عليه بالذلةِ والانكسارِ ودوامِ الافتقارِ، حتى يحترقَ جوفُك خوفًا من الطَردِ، وحتى ينطقَ دمعُك بطلبِ القُربِ، فإن قابلتَ عِزَّتَه بذلتِك، فرُبَّما أقالَ عثرتَك وقَبِلَ توبتَك.

فاحذرْ أنْ تُعاملَه كاختيارٍ، فيسلبَ منك الاختيارَ، بل ما تعلمنُهُ أنَّ الإرادةَ منحةٌ، فإن وُجِدَتْ، وكان ثمةَ خيارٌ بينَ محبوبٍ له ومحبوبٍ لي، ولو لم يكُنْ بين حرامٍ وواجبٍ، بل بينَ فضيلةٍ ومباحٍ، فلا سبيلَ عندي لاختيارِ ما أُحِبُّ، فهذا بابٌ شديدٌ من سوءِ الأدبِ معَه سبحانه.

وأُقرِّبُ لك الأمرَ لتزدادَ فَهْمًا، فإنَّ هذا بابٌ دقيقٌ وجدْتُ أكثرَ التفريطِ من أهلِ الخيرِ فيه، وأضرِبُ لك مثالًا به يتضحُ الكلامُ.

فلو أنكَ أعطيتَ موعدًا لصديقٍ، واتفقتَ معه على تناولِ الغداءِ سويًا، ثُم لمَّا كانَ في طريقِه إليك، جاءتكَ امرأةٌ حسناءُ تدعوكَ لتناولِ الغداءِ معها بلا سابقِ موعدٍ، فاتصلْتَ بصديقِك متعلِّلًا بحالةِ وفاةٍ أو مرضٍ شديدٍ، ثم خرجتَ معها في مطعمٍ لتُفاجَأَ بدخولِ صديقِك نفسَ المطعمِ، ويراكَ صحيحًا جالسًا فرِحًا مع هذهِ الحسناءِ، فيدركُ على الفورِ أنكَ اخْتلَقْتَ الاعتذارَ من أجلِ هذهِ الجلسةِ الرخيصةِ، إنَّ أدنى ما سيفعلُه معكَ هو قطعُ عَلاقتِه معك، وسقوطُك من نظرِه، فلو لم يدُلّ تصرفُك هذا سوى على الخِسَّةِ ودناءةِ الأصلِ؛ فلا خسَّةَ في الوجودِ.

لستُ أدَّعِي أنَّ الإلهَ يعاملُنا معاملةَ الصديقِ، ولكنِّي قصدتُ بضربِ المثالِ بيانَ سوءِ الأدبِ معه - سبحانه - إذا أعرَضْنَا عنه ميلًا إلى دنيا، أو آثَرْنَا شيئًا خسيسًا على عملٍ شريفٍ، فسوءُ الأدبِ هو المشتركُ بينَ المثالينِ، وعقوبةُ سوءِ الأدبِ الطردُ.

فخُذْها منِّي نصيحةَ العُمُرِ: لا تُقَدِّمْ على رضا اللهِ أمرًا، ولا تُؤثِرْ على لقائِه لقاءً، فإن كنتَ فعلتَ وعُوقِبْتَ بالحرمانِ؛ فادخلْ عليه من بابِ الذلةِ والانكسارِ، لعلَّ العزيزَ يجودُ بكرمِه، ولا يَقْنَطُ مِن رحمةِ اللهِ إلا جاحِدٌ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إقبالٌ وإدبارٌ

أتأمَّلُ في وجوهِ المُستنِّينَ، أتخيلُ كيف كانَ شكلَهم قبلَ أن تُبدّلَه السِّنُونَ، وتُخفيه التجاعيدُ.

أنظرُ في صُوَرِي القديمةِ، وأرجعُ بالذاكرةِ إلى سنواتٍ مضتْ، هنا كنتُ سعيدًا مع أهلي، وهنا كنتُ حزينًا لفواتِ شيءٍ، وهنا كنتُ أظنُّ أنِّي مع حبيبٍ قريبٍ فإذا به يرحلُ، وكأنَّنا لم نعرفْ بعضنَا يومًا!

هكذا كلُّ شيءٍ يمضي، السعادةُ والحزنُ، فلا شيءَ في هذه الدنيا يبقى على حالِه، وتُطوَى صفَحاتُ الأعمارِ، وتنتهي الضحكاتُ، ومَن كانَ يملأُ الدنيا ضجيجًا، يرحلُ ليحلَّ محلَّه غيرُه.

إن سرتُ في صَحْراءَ أُحدِّثُ نفسي كم مِن قافلةٍ قديمةٍ مرَّتْ في هذا المكانِ! وهَلْ حدثَ هنا في يومٍ أنْ دارتْ معاركُ في العصورِ القديمةِ ثُم غَطَّتْها الرمالُ وطَوَتْها الأيامُ؟!

منذُ سنواتٍ علمْتُ بوجودِ ضعفٍ في إحدى عينيَّ، استدعَى عمليةً بسيطةً، في يومِ العمليةِ بعدَ أنْ رجَعتُ إلى البيتِ معَ صديقي، واطمأنَّ على حالِي، بدأَ الألمُ يزدادُ، كانَ الألمُ شديدًا مِن أيِّ ضوءٍ، حتى ضوءِ القمرِ اليسيرِ الذي يتخللُ النافذةَ المغلقَةَ!

أظلَمْتُ البيتَ، وأغلقْتُ النوافذَ والأبوابَ، وجلستُ في وسطِ البيتِ، لا أرى يديَّ مِن شدةِ الظلامِ، شعَرتُ حينَها بأنِّي وحدي تمامًا، وحدي حتى مِن حواسِّي التي آنَسُ بها ولو بالتأملِ في سقفِ البيتِ، لم أجدْ جليسًا معي حينَها سوى ما في صدري مِن القرآنِ، فرُحْتُ أتلُوهُ لأقطعَ به الوقتَ والوَحدةَ والألمَ!

حينَها انتبهْتُ لنفسي، فقد أحاطتْ بها الشواغلُ، وانشغلْتُ بالأصدقاءِ والأحبابِ، وغدًا نرحلُ عنهم وحْدَنَا، وندخلُ في ظُلْمَةِ قبورِنا، فلا ينيرُها لنا إلا أعمالُنا، وما انطوَتْ عليهِ صدورُنا.

إنَّها اللحظةُ التي تتكشَّفُ لكَ فيها قيمةُ ما لديكَ، فتعيدُ حساباتِكَ، وتعرفُ ثروتَكَ الحقيقيةَ وفقرَك العظيمَ.

قد نأنَسُ لصحبةِ إنسانٍ، أو قوةِ شبابٍ، أو مطالعةِ كتابٍ، أو جمالِ منظرٍ، ولكنْ هذه أمورٌ كظلِّ شجرةٍ في صَحْراءَ يستريحُ عندها المسافرُ، ولا ينبغي أنْ يُديمَ البقاءَ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحُبُّ وَالعَقْلُ

عندما تَخْبُو الأفكارُ تتضحُ المشاعرُ؛ فالعقلُ حجابٌ للقلبِ.

ألهذا السببِ يكثرُ حديثُ الشعراءِ عنِ السهرِ، وحنينُ المُحِبِّينَ في ليالي الشتاءِ الطويلةِ؟ حيثُ تنقطعُ الأصواتُ وتهدأُ الأفكارُ فتظهرُ المشاعرُ بوضوحٍ، ويحنُّ الأليفُ إلى أليفِهِ.

وإنما حجبَ العقلُ القلبَ باختلافِ مرادِهما ولغتِهما، فالعقلُ لغتُهُ المنطقُ والمكاسبُ والخسائرُ والنظرُ في المآلاتِ، والقلبُ لغتُه التفاني وارتباطُ الأرواحِ ولذةُ الوصالِ.

في القلبِ لا مساحةَ لمكسبٍ وخسارةٍ؛ حيثُ يجلسُ المحبوبُ كمَلِكٍ آمِرٍ وناهٍ، فلا قيمةَ لأيِّ شيءٍ آخَرَ سواهُ، ولا وجودَ لمعنىً آخرَ إلا إيَّاهُ.

العقلُ ينظرُ في المقدماتِ ليصلَ للنتائجِ؛ فما لم تتعددِ الأشياءُ لا يُنتِجُ ولا يعملُ، كبَنَّاءٍ أعطيتَهُ ترابًا - فقط - ليبنيَ بِهِ بيتًا؛ فإنَّهُ سيعجَزُ لا محالةَ.

أما القلبُ فلغتُهُ الوَحْدةُ، ومطلبُهُ السكونُ، لا يطلبُ حركةَ العقلِ بينَ الأفكارِ، بل يطلبُ قرارَ العينِ برؤيةِ الحبيبِ. إنْ أحبَّ الترابَ فلنْ يباليَ ما يَصنعُ بِهِ، وإنْ طلبتَ منهُ بناءَ بيتٍ بِهِ قالَ لكَ: وهلْ يفارقُ الحبيبُ حبيبَهُ!

فلغةُ القلبِ الوَحدةُ، ولغةُ العقلِ الكثرةُ.

القلبُ يقَرُّ ويسكنُ، والعقلُ يتحركُ ويبحَثُ.

وعندما يقوَى العقلُ، فإنَّهُ يأبى على القلبِ سكونَهُ، وعندما يتحركُ العقلُ فإنَّهُ يأبى على القلبِ قرارَهُ.

من هنا يعجزُ المحبُّ العاقلُ وتُنهِكُهُ الأيامُ؛ فهوَ كرجلٍ يركضُ دومًا فرارًا من سَبُعٍ وهميٍّ؛ يخشى إنْ توقّفَ أنْ يفترسَهُ!

فإذا انضمَّ لقوةِ العقلِ أَنَفَةُ الروحِ وحماسةُ الطبعِ، اشتدَّ فرارُ الإنسانِ من مشاعرِهِ؛ بل اشتدَّ غضبُهُ منها، كأنَّهُ يكرهُها ويتألمُ منها!

بل ربما ظهرَ غضبُهُ في سخريتِهِ من كلِّ محبٍّ واستحقارٍ لكلِّ رقةِ طبعٍ.

ذلكَ أنَّ الحبَّ يحبسُ صاحبَهُ في واحدٍ، ويسلبُ إرادتَهُ ويُشرِكُهُ في فكرِهِ، لا عنِ العشقِ الذي يسلبُ العقلَ أتحدَّثُ؛ بل عنِ الحبِّ الصادقِ الذي يجعلُكَ تفكرُ في محبوبِكَ، وتتركُ مرادَكَ طلبًا لسعادتِهِ، وتُؤثِرُ رضاهُ على رِضاكَ وما يُحبُّ على ما تحبُّ، لا مداهنةً وضعفَ طبعٍ، بل سعادةً بسعادتِه وطلبًا لرؤيةِ فرحتِهِ، فلا شيءَ عندَ المُحِبِّ الصادقِ أكملُ من بريقِ السعادةِ في عينَيْ محبوبِهِ، ولا شيءَ أثقلُ عليهِ من انطفاءِ عينيهِ بسحائبِ الحزنِ.

وذو الأنفَةِ يأبَى أن يكونَ تابعًا؛ أن يُضعِفَهُ الحبُّ ويحصرَهُ القلبُ في سجنِهِ.

فهوَ يفرُّ من ضعفِ قلبِهِ بشغلِ عقلِهِ، ويفرُّ من سلبِ إرادتِهِ باختيارِ حريّتِهِ.

فإن أصابَهُ سهمُ الحبِّ، تصارعتْ أقطابُهُ وتنافرَتْ، فهذا عقلٌ يحاولُ التشويشَ على حنينِهِ، وهذا قلبٌ يجتذبُ العقلَ ليكونَ سجينَهُ.

والطبعُ يساعدُ هذا أو ذاكَ، والمعركةُ دائرةٌ، والقتالُ شديدٌ.

فبينَ ضربةِ سيفٍ تُبقيكَ حُرًّا، وبينَ رميةِ سهمٍ تُبكيكَ شوقًا، تنشأُ الحَيرةُ ويختلطُ الفكرُ، فإن اشتدَّ الأمرُ فرَّ الإنسانُ لعزلةٍ كهُدْنَةٍ، يضعُ فيها كلُّ فريقٍ سلاحَهُ، فلا يُقبِلُ ولا يُدبِرُ.

فإن أردتَ نقضَ هُدْنتِهِ واقتحامَ عزلتِهِ، قاتلَكَ بِضَرَواةٍ، ودافعَ عن راحتِهِ بشراسةٍ، وخاصةً إن كانَ المقتحِمُ حبيبَ القلبِ! فهوَ لا يريدُ أن يحركَ قلبَهُ وقد أراحَهُ، ومنهُ فرَّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وقد يتصارعُ الطرَفانِ ويتشاكسانِ، ولكن قد يكونُ العقلُ أكثرَ حكمةً والقلبُ أقلَّ اشتعالًا، فيستمعانِ لبعضِهما ويتعاونانِ فيما بينَهُما، فيتركُ كلٌّ منهما شيئًا من عنادِهِ، ويتخلى عن بعضِ مرادِهِ.

فيقبلُ القلبُ تحذيرَ العقلِ من الإفراطِ في الحبِّ ومن شدّةِ التعلقِ، فيقلِّلُ من شَغْلِ نفسِهِ بالمحبوبِ ويُزاحمُهُ ببعضِ المطلوباتِ، فإنَّ القلبَ لا يشتعِلُ إلا بكثرةِ الذكرِ.

ويستمعُ العقلُ لحديثِ القلبِ فيتخفَّفُ من حذرِه، ويقلِّلُ من حساباتِهِ، فنرى حينَها ما نُسميهِ حبًّا عاقلًا أو هادئًا، وكأنّنا لاحظْنَا تمايُزَ الأمرينِ وتصارُعَهُما، حتى صحَّتْ إضافتُهما إلى بعضٍ ووصفِ أحدهِما بالآخَرِ، وذلكَ دليلُ التبايُنِ، فالشيءُ لا يضافُ إلى نفسِهِ، ولا يوصَفُ إلا بغيرِهِ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نِعْمَ الحبُّ سكونٌ ووَحْدَةٌ! لا يطيبُ لقاءٌ بحبيبٍ يَحضُرُ فيهِ غيرُه، ولا تأنَسُ النفسُ بالنظرِ إلى سواهُ، ولا الحديثِ إلا معهُ.

فإن شاركَ الوجودَ سواهُ، تشتّتَ البالُ وتنغّصَتِ اللذةُ.

والحبُّ عطاءٌ لا يعرفُ قيودَ العقلِ من مكاسبَ وخسائِرَ، يهونُ في جانبِهِ العطاءُ، وتتضاءلُ الزلاتُ، لا لمهانةٍ أورثَها الحبُّ؛ بل لأنَّ الحُبَّ قوةٌ هائلةٌ من العطاءِ والرحمةِ، فلا يطيقُ الإنسانُ عتابًا على صاحبِهِ؛ إذ غايةُ العتابِ تفريغُ الحزنِ، ولكنَّهُ يؤلمُ المُعَاتَبَ ويُحزنُهُ.

وهل يُطيقُ مُحبٌّ صادقٌ حزنَ محبوبِهِ!

فيبتلعُ حزنَهُ وعتابَهُ، ويُؤثِرُ أن يصمتَ رأفةً بمحبوبِهِ وإيثارًا لهُ.

فقط نوعٌ واحدٌ من الزللِ ربما يصعبُ تجاهلُهُ، تلكَ الزلةُ التي تُشعِرُكَ بتهاونِ محبوبِكَ بكَ واستخفافِهِ بكَ، التي تشعرُ معَها أنهُ لم يعُدْ يُحِبُّكَ ويُقبِلُ عليكَ.

والحُبُّ وَقُودُهُ ذِكْرُ المحبوبِ وشغْلُ القلبِ بِه، ولا شُغلَ بلا ذِكرٍ، ولا ذكرَ بلا حضورٍ، ولا حضورَ مع غيبةٍ!

فالتجاهلُ غيبةٌ وابتعادٌ، والتشاغلُ تباعدٌ، والإعراضُ غيابٌ.

فإن استمرَّ المحبوبُ في إعراضِهِ بردَتْ نيرانُ القلبِ، وهدأتْ شعلةُ الحبِّ، فما يزالُ يخبتُ وَهَجُهُ حتى يضمرَ ويموتَ.

ولعلَّكَ تقولُ: فما بالُنا نرى المحبَّ من طرفٍ واحدٍ يسعى في ودادِ محبوبِهِ ويطلبُهُ والأخيرُ مُعرضٌ، فلو كانَ الأمرُ كما تقولُ لانصرفَ هذا المُحبُّ المتروكُ؟

فلْتعلَمْ أنَّ الأمرَ كذلكَ، أعني أنَّهُ سينصرفُ لا محالةَ ولوْ آجِلاً، إذ لو دامَ المُحِبُّ على إعراضِهِ لانصرَفَ بالفعلِ. غايةُ الأمرِ أنَّ نيرانَ حبِّهِ ما تزالُ مشتعلةً لقوتِهِ، والنارُ العظيمةُ لا تَخمُدُ في سرعةِ أعوادِ الثقابِ.

ثمَّ قد يقترنُ بالحبِّ ما يُقوِّي أثرَهُ، فيتشابَهُ فِعلُهُما رُغْمَ تباينِ حقيقتِهِما!

أعني الشهوةَ أو العِندَ، فقد تشتدُّ بمُحبٍّ شهوتُهُ، حتى تغلِبَ مشاعرَهُ، ولكنَّ الشهوةَ عورةٌ نُوارِيها ونخجَلُ من الحديثِ عنها، فلا بأسَ أن نتمسَّكَ بدعوَى الحبِّ ونُمسِكُ عن ذِكرِ الشهوةِ، وربما يضعفُ الحبُّ وأثرُهُ وتشتدُّ الشهوةُ وتضطرمُ، ثمَّ يقعُ الخلطُ بينَهما، فهما لقربِ محلِّهما يتشابهانِ، ولاتحادِ مطلبِهِما يمتزجانِ، فما تظنُّهُ حبًّا قد يكونُ اشتهاءً!

أما العِندُ فهوَ أن يشعرَ بكرامتِهِ قد انتقصَت بالرفضِ، فتحملُه العزةُ على البقاءِ ويمدُّهُ العندُ برغبةٍ تستمرُّ إلى حينٍ، فتظنُّهُ حبًّا وقد خبا الحبُّ في قلبِهِ منذُ زمنٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولا أجزمُ أنَّ أصلَ الحبِّ واحدٌ، ولكنّي أميلُ إلى ذلكَ، فأرى أنّ حُبَّ الأبِ كحُبِّ الابنِ، كحُبِّ الصديقِ، كحُبِّ الزوجةِ!

ذلكَ أنَّ الحُبَّ هو تآلُفُ القلبِ وميلُهُ، أما لوازمُ هذا الميلِ ومآربُهُ فتختلِفُ باختلافِ العلاقةِ.

الأمرُ أشبَهُ بالطاقةِ الكهرَبائيّةِ، تسري في أسلاكِ بيتِكَ ثُمَّ تخرجُ في كلِّ جهازٍ بِطَاقَةٍ مختلفةٍ. ففي الخلّاطِ حركةٌ وفي السخّانِ حرارةٌ، وفي المصباحِ نورٌ.

والحبَّ ليسَ هو الشهوةُ ولا الرحمةُ، بل هذهِ أمورٌ قد تقارنُهُ وقد تفارقُهُ.

ولكن لشدةِ امتزاجِ الأشياءِ نظنُّها واحدًا وهي شتَّى!

ألا ترى الجُوعَ لمّا اشتدَّتْ مقارنتُهُ لاشتهاءِ الطعامِ ظننَّا أنَّه هوَ، وهما مختلفانِ، حتى إنَّكَ قد تقطَعُ جُوعَكَ بطعامٍ لا تستسيغُهُ، أو باستفراغِ معدتِكَ طلبًا للشعورِ بما يتبعُ القيءَ من إحساسٍ بالشبعِ!

فالجوعُ قد يُدفَعُ بكسرةِ خبزٍ، ولكنَّكَ إن جُعْتَ تُفكِّرُ في أطايِبَ الأطعمةِ فتظنُّ أنَّ هذا هو الجوعُ، وإنّما هي شهوةُ الطعامِ.

فكذلك الحبُّ لشدةِ اقترانِهِ بينَ الجنسينِ بالشهوةِ نظنُّ أنَّهُما شيءٌ واحدٌ.

ولشدةِ اقترانِهِ بينَ الأبِ وابنِهِ بالرحمةِ نظنُّ أنَّهُما شيءٌ واحدٌ.

فإن جرَّدْتَ الحُبَّ عن لوازمِهِ المعتادةِ، تمحَّضَ لك ميلًا قلبيًّا وتعلُّقًا روحيًّا.

لذا فلا عجبَ أن يكونَ أشفقَ الناسِ على الخلقِ أقربُهُم تعلُّقًا باللهِ، ذلكَ أنَّ القلبَ الذي اعتادَ الحبَّ معَ المحسوسِ المشاهَدِ، يسهُلُ عليهِ الحبُّ مع الإلهِ الذي حجَبَ الخلقَ عنهُ في هذهِ الدنيا.

فالحبُّ هو خفقانُ القلبِ وميلُهِ، والقلبُ الذي اعتادَ أن يخفِقَ في جهةٍ، يسهُلُ عليهِ أن يخفِقَ في جهةٍ أشرفَ إن حانَ الوقتُ.

أمّا قاسي القلبِ الذي لم يعتدِ الميلَ، فلا تحركُهُ اللطائفُ ولا تُميِّلُهُ نسماتُ القربِ.

فالحبُّ رياضةٌ للقلبِ، تفتحُ للقلبِ أبوابًا فيُشرقُ منها النورُ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الوَدُودُ

كم من مرةٍ أدبَرْتَ وتشاغَلْتَ، فإذا بالرحَماتِ تزدادُ وبالعطايا تُساقُ؟!

كأنَّهُ يتودَّدُ إليكَ وأنتَ معرضٌ، ويطلُبُكَ وأنتَ مستغنٍ، وهو الغنيُّ وأنتَ المحتاجُ.

ما شرَدْتُ يومًا ثمَّ طرَقْتُ بابَهُ فشعَرْتُ أنَّهُ أُوصِدَ لغيرِ رجعةٍ، بل دائمًا أشعرُ أنَّهُ يَقبلُني على كلِّ حالٍ، حتى لو ردَّكَ الخلقُ وكرِهُوكَ.

لا أغْفُلُ عن خوفِ عقوبتِهِ، أو تأخُّرِ إجابتِهِ، ولكنَّ وُدَّهُ عوَّدَني أنَّهُ ما قطعَني؛ بل هوَ معي وإن أبعدَني.

فحجابُ العزةِ سِترٌ يَحجُبُنا، ولطائفُ الودِّ تسري من وراءِ الحجابِ.

فما من محنةٍ إلا ووجدتُ مِنَحَهُ فيها أكثرَ، وما مِن بُعدٍ انقطعَ فيهِ فضلَهُ.

نذهبُ ونروحُ، ويحفظُ لنا ودًّا قديمًا وعهدًا بينَ يديهِ قطعنَاهُ في لحظاتِ صدقٍ معهُ، فإن تبدَّلَ الحالُ وشرَدتِ النفسُ، تراءتِ الألطافُ من وراءِ حجابِ البُعدِ، كنورٍ يتخلَّلُ الستورَ، وبريقِ صبحٍ يسري عبرَ كوّةِ الجدارِ.

فالودودُ ما قطعَ وُدَّهُ، والكريمُ مَن صانَ عهدَهُ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القِسمُ الثالثُ

«خَوَاطِرُ عَنْ مَعْرِفَةِ القَلْبِ»[1]

(١)

في رمضان ترتفِعُ العوائقُ، وتهدأُ الشهواتُ، فيكونُ الطريقُ أوضحَ إلى القلبِ، حيثُ لا حُجُبَ مِنَ الخارجِ، ولا شواغِلَ مِنْ مطالبِ النفسِ، فالنفسُ إن يئِسَتْ مِنْ مطلَبِها كفَّتْ عَن الصِّياحِ، وسكَنَتْ تحتَ قهرِ الانتظارِ.

فإنْ سكَنَتِ النفسُ أمكنَ للقلبِ أنْ يَتكلّمَ ويُفصِحَ، ولكنّا لم نَعْتَدْ له استماعًا، ولا أَلِفْنَا صَوْتَهُ؛ فما فهِمْنا لُغَتَهُ.

في رمضانَ سأُخْبِرُكَ قليلاً عنْ قلبِك، أو بالأحرَى سأُحَدِّثُكَ عن قلبي، فإن تشابَهتْ قلوُبُنُا ربما أعانَكَ هذا على قلبِكَ. وإنْ تفاوتتْ فيكفِيني أنكَ شاركْتَنِي رِحْلَتِي.

(٢)

القلبُ: مرآةٌ صافيةٌ تنعَكِسُ فيها ألوانُ الوجودِ، صِرَاعَاتُكَ ومخاوِفُكَ، حبُّكَ وكُرْهُكَ، أزَمَاتُكَ التي عِشْتَهَا ونَجَاحَاتُكَ التي حقَّقْتَهَا، تَمرُّ كُلُّهُا على قلْبِكَ فتُكْسِبُهُ صلابةً أو رِقَّةً، أو مَزيجًا مِنهما. يتلوَّنُ قلبُكُ بقدرِ ما خَالَطتَ من أمورٍ، وبقدرِ ما سمِعْتَ وما رأيتَ.

وقد تَحْسَبُ أنَ أغنيةً مرَّتْ بك في طفولتِكَ أو صورةً رأيْتَها في صِباكَ أو كلمةً تكلَّمْتَ بها في شبابِكَ، تحسبُ أنَّ هذا مرَّ مرورَ الكِرامِ؛ كعملٍ كُتِبَ لكَ أو عليكَ، أوْ لا لكَ ولا عليكَ وتُسَمِّيهِ مُباحًا، ولكنه قبلَ أنْ يَمُرَّ خطَّ في قلبِكَ خطًّا، وترَكَ فيه أثرًا.

نَعَمْ، حياتُنَا تصنعُ قلُوبَنَا، وأعمالُـنَا ترْسِمُهَا، ثم تعودُ القلوبُ فترْسِمُ حياتَنَا وتصنعُ أعمالَنَا، كبذرةٍ أُلقِيَتْ فعادتْ شجرةً مثمرةً، فكانت بذورُ ثِمارِها بذْرًا لمئاتِ الأشجارِ.

(٣)

الحُبُّ: مِفْتاحُ القلبِ الأعظمُ، والقلبُ إذا أَحبَّ رَقَّ، وإذا رَقَّ دبَّتْ فيهِ الحياةُ، قد يكونُ أوَّلُ حبٍّ يُحرِّكُ قلْبَكَ عجيبًا، قد يكونُ حُبًّا لطفلٍ مسكينٍ رقيقِ الحالِ، أو أُمٍّ غَمَرَتْكَ بحَنانِها، أو حتى لهِرَةٍ أليفةٍ أهدِيَتْ إليك، المهمُّ أنْ تُحِبَّ،

فإذا أحبَبْتَ بذلتَ، وخِفْتَ على محبُوبِكَ، وانشغَلْتَ به، فكانَ في بَذْلِكَ وانشغالِكَ خروجٌ عَن أنانِيَّتِكَ وإنصاتٌ لقلبِ محبوبِكَ.

ستُفَكِّرُ فيما يحتاجُ إليهِ، وستشعرُ بحديثِ عينيهِ، ستفهَمُ اللغةَ الصامتةَ التي تتحدثُ بها القلوبُ، وستَعرِفُ معنى العطاءِ بلا مقابلٍ، وكلَّما كنتَ الأشدَّ حبًّا، كُنْتَ الأكثرَ عطاءً والأقلَّ طمعًا، فانظُرْ كم جلبَ لكَ الحبُّ مِنْ رقّةٍ وعطاءٍ وبذلٍ وفَهمٍ لحديثِ القلوبِ ولُغةِ العُيُونِ؟! وهل حياةُ القلوبِ إلا هذا؟!

(٤)

الألمُ: أشدُّ ما يُنضِجُ القلبَ وأسرعُ ما يُنبِتُ فيه مِنَ الرِّقةِ أو القسوةِ، فلا شيءَ يُثْقِلُ مَعدِنَ القلبِ إلا وطأةُ الألمِ والمعاناةِ.

يشعُرُ بالافتقارِ والعجزِ، يستغيثُ بحثًا عن رحمةٍ أو يدٍ حانيةٍ تمتدُّ إليه تُخفِفُ وطأةَ ما يُعانِيه، فإن وجَدَها - ولو كانتْ سكينةً في القلبِ أو تسليمًا بالقضاءِ - عادَ الألمُ شفقةً على الخلقِ ورحمةً، وإلا عادَ غضبًا وحِقدًا، كأنهُ يُعاقِبُ الجميعَ أو ينتقِمُ من المجهولِ الذي لمْ يَرْحَمْهُ في صورةِ كلِّ مَنْ حَوْلَهُ.

أما رحمَتُهُ فلأنه يتمنَّى ألا يتألَّمُوا كما تألموا، لأنه يشعرُ بألَمِهِم حقًّا، والقلبُ إن أحسَّ ألمَ الغيرِ كانَ أجدرَ على مواساتِهِ والرحمةِ له، ومعظَمُ قسْوتِنا على أحبابِنا تأتي مِنْ أننا لم نشعُرْ بما بِهِم، فالقلبُ ما لم يتألمْ لا يُدْرِكُ ألمَ الغيرِ، والرحمةُ إنما تملأُ القلوبَ التي تألَّمَتْ فسلّمَتْ.

(٥)

الشهوةُ: نارٌ تَضطرِمُ في القلبِ، فلا تجدُ الجوارحَ إلا مُسرعةً لإطفائِها بتلبِيَتِها، كجائعٍ يلتهِمُ الطعامَ التهامًا، كلما أطفأتَهَا بتلبيةِ طلَبِها، هَدَأتْ قليلًا، فظَنَنْتَ أنها خَبَتْ، ثم تعودُ فتكونُ أكثرَ اشتعالًا وأشدَّ ضرواةً.

والقلبُ إذا ذاقَ لذةً تشبّثَ بها، وصعُبَ فِطَامُهُ عنها، فكانَ قلبُكَ حالَ امتلائِهِ بنيرانِ الشهوةِ أشدَّ أعدائِكَ عليكَ، فلا محيصَ مِن أن تستعينَ عليه بالحيلةِ حتى يثوبَ إلى رُشدِهِ ويكُفَّ حدَّهُ، تَشْغَلُهُ تارةً أو تُنْهِكُهُ أخرى، وما زلتَ تسوسُهُ حتى ينشغلَ عن شهوتِهِ بطولِ الزمانِ، ولا عجبَ أنْ تتحركَ نيرانُها بينَ الحينِ والحينِ في صورةِ ذكرَى، تدفعُهَا فكرةٌ في معنىً عفيفٍ أو صورةٍ لشَريفٍ؛ فالقلبُ مَعدِنُ الصُّوَرِ، والصُّوَرُ حبائلُ المعاني.

(٦)

حديثُ القلوبِ: للقلوبِ لغةٌ تتحدثُ بها إلى بعضِها، لا يسمعُهَا إلا القليلُ، يسمعونها فقط حين يُحبُّونَ حُبًّا مُجَرَّدًا عن الأغراضِ والمطالبِ، يُشبِهُ حبَّ الأمِّ لصغيرِها.

قد تُفصِحُ عنْ نفسِها في نَظَراتِ العينِ التي تُخْبرُ بالكثيرِ، أو في قبضةِ اليدِ التي تُمَسِكُ بكَ في حنانٍ وقوةٍ في آنٍ، كأنما تقولُ لكَ: أنا إلى جوارِكَ، وأنت قويٌّ.

ولكنّا اعتدْنا ألّا نستمِعَ لها، وصِرنا نستحِي منها، آثَرْنا الكلامَ على الصمتِ، والضجيجَ والمُزَاحَ على التربيتِ على الكَتِفِ في حنانٍ، فلم نعُدْ نستمعُ لأنفُسِنَا، وصارَ منْ يُحِبُّنا يَستحِي أن يُخبِرَنا.

هي لغةٌ صامتةٌ أفصحُ من آلافِ الكلماتِ، ولكنها تحتاجُ إلى قلبٍ يُحِسُّ بصدقٍ، وآخَرَ يُحِبُّ بصدقٍ، تحتاجُ إلى ألّا نستحِيَ من مشاعِرِنا الشريفةِ، وألّا نأنفَ مِن ضعفِنا، وألّا نَستضعِفَ أنفُسَنَا إن أحبَبْنا مَنْ يستحِقُّ.

(٧)

الوهمُ: خيالٌ جالَ في القلبِ فصَدَّقَهُ، فلما صدَّقَهُ توهَّمَهُ واقعًا، فزادَ فيه ألْفَ وهمٍ، فهو منكَ ابتداءً وأنت إليه انتهاءً.

فإنْ تَمكَّنَ منكَ عجَزْتَ عن الخروجِ عن سطْوَتِهِ، وعسُرَ عليكَ الانتباهُ من غفلتِهِ وسَكْرَتِهِ.

يَأْتِيكَ مِنْ مُرادِ قلبِكَ، تُحِبُّ نَفْسَكَ فتتوهَّمُ نفسَكَ عظيمًا لم يأتِ في الزَّمانِ مثْلُكَ، وتبحثُ عن الحُبِّ فتتوهَّمُهُ في نظرةٍ عابرةٍ أو ابتسامةٍ خادعةٍ، وتبحثُ عن الطِيبَةِ فتتوهَّمُهَا فِيمَنْ أظهرَ الصَّلاحَ. وفي كلٍّ أنتَ تبحَثُ عمَّا تُريدُ، فتصنعُ ما تريدُ.

وليسَ ما صنَعْتَ مِثْلَ ما وجدْتَ، ولكنَّكَ تستقصِرُ البحثَ وتتعجَّلُ الظَفَرَ، فتستعينُ بالخيالِ، ثُم تَدخُلُ عَالَمَهُ، فتُفَسِّرُ كلَّ ما تَجِدُ بكلِّ ما تَأمُلُ حتى يَصِيرَ الوهْمُ عالمَكَ الآمِنَ، فَلا تَخْرُجُ منهُ إلا بِخُروجِكَ مِن هذا الوُجودِ.

(٨)

الشكُّ: سطوةُ الفكرِ على القلبِ، شرارتُهُ أمرٌ غيرُ مفهومٍ أو غيرُ معتادٍ، فالعادةُ تُطَمْئِنُ والمعرفةُ تَرفعُ الشكَّ، فإنْ تخلَّفَا تركاكَ في عَماءٍ، فيتسلَّطُ فِكرُكَ على قلبِكَ يأخُذُه يَمينًا وشِمَالًا، فإذا ما كنتَ تركَنُ إليه يَمِيدُ بك، وإذا بالثابتِ عندَكَ متحرِّكٌ.

وإن تمادَى بك الشكّ خِفتَ، فأمانُكَ من ثوابِتِكَ، وها هي قد مادتْ بكَ، فهل يبقَى لك ركونٌ إلى شيءٍ؟!

ولكنْ هِلْ مِن طبعِ القلبِ أنْ يشكَّ أمْ إنَّ الشكَّ ضيفٌ ثقيلٌ ألقاه إليه العقلُ فانشغلَ به القلبُ حتى خرَجَ عن طبعِهِ؟!

ما أرى القلبَ إلا ساكنًا إلى شيءٍ أو نافرًا عنه، قد يتردَّدُ بين أحدِهِما في قَبولٍ ورفضٍ حتى يحسِمَ أمرَهُ، أما أنْ تتصارَعَ فيه الاحتمالاتُ والظنونُ، فهذا ليسَ منه، فإنَّهُ لو سكَنَ، لجَزَم.

(٩)

الرحمةُ: رقَّةٌ في القلْبِ تجعَلُكَ تَشْعُرُ بألَمِ الغيرِ كأنَّهُ في قلبِك أنتَ، ترَى في الوحشِ - إنْ رَحِمْتَهُ - ضعفَهُ الملازمَ لكلِّ المخلوقاتِ فترِقُّ له، تَشْعُرُ بنسبَةٍ ما بيْنَكَ وبينَهُ فتقتَرِبُ منهُ، تشعُرُ بأنَّ عندكَ ما تُعطيهِ فتمنحُهُ، أوْ تُدْرِكُ عجْزَكَ فتتألَّمُ.

ربما فرَرْتَ مِمَّنْ ترحَمُهُ إنْ عجزْتَ، وتشَاغَلْتَ عنهُ فِرارًا من ألمِكَ، وكأنكَ تُديرُ بصرَكَ حتى لا تعلمَ أنه يتألمُ.

قد تتصارعُ الرحمةُ مع الغضبِ فتقهرُهُ، وقد تتسابقُ مع القسوةِ فتغلِبُهَا، فإذا بك تشاهدُ فيمن آذَاكَ بشريَّتَهُ وضعَفَهُ فتعفو، فإذا بقلبِكَ المُشتَعِلِ غضبًا يهدأ كأنما صُبَّتْ عليه دِلاءُ الماءِ الباردِ، بل ربما انقلبَ أمرُهُ من القسوةِ إلى الرقَّةِ، فإنْ رقَّ بذَلَ.

(١٠)

الاحتياجُ: فراغٌ في القلبِ؛ كحُجرةٍ خاليةٍ تتردَّدُ فيها الأصداءُ، تبحَثُ عن شيءٍ لا تَدرِي كُنْهَهُ، تشعُرُ بنقصٍ لشيءٍ ما، تُجرِّبُ أشياءَ فلا تُجدِي معك فَتيلًا، وأقصَى ما تحصُلُ عليه بعضُ الانشغالِ، ثُم ما يلبَثُ الصدى أن يعودَ، والقبْضُ يجثمَ على الصدرِ.

قَدْ تُسَمِّيهِ وَحْدةً، وقدْ تَحَارُ فيه، ولكنَّهُ شعورٌ بأنَّ هناك ما هو مفقودٌ.

ربَّما أذهبَ هذا ضمَّةُ أمٍّ أو حبيبٍ، أو سجدةٌ صادقةٌ تسكُبُ فيها دمعَ الافتقارِ، وكأننا نحتاجُ لمعنىً مجهولٍ وجدناهُ عند البعضِ ولم نفهَمْهُ، أهو الحنانُ أَمْ الأمانُ؟ أم إنَّهُ الشرودُ ثم العَوْدُ إلى الأوطانِ؟ ربما نجدُ الوصفَ أحيانا لِمَا كنا نفتَقِدُهُ، ولكن في كثيرٍ من الأحيانِ سنشعرُ ببردِ الاحتياجِ، وبدفءٍ ما هناك، حيث تجدُ ما يُكمِّلُكَ، ويجبرُ نقصَكَ ويقبَلُ ضعَفَكَ.

(١١)

الصور: كأن القلبَ شريطٌ مسجلٌ، يجترُّ ماضيِهِ في صورةِ وَمَضَاتٍ، ومضاتٍ حيةٍ تشعرُ بمعانيِها.

هنا كانت حماقَتُكَ وهنا كانت شجاعَتُكَ، وهنا وجدْتَ قلبَكَ.

تمرُّ الصورُ فإذا ما يأتي ليس بمجردِ وقائعَ كقَصصِ التاريخ، بل معانٍ حيةٌ وأحاسيسُ نابضةٌ.

وكأنَّ العقلَ يُخَزِّنُ الأحداثَ والقلبَ يحفظُ المعاني، فإن تجسدَتْ في صورِها الشاخصةِ في القلبِ، بُعِثَتْ فيها معانيها، فانقلبَتْ من ذكرياتٍ ميّتةٍ إلى وقائعَ حيةٍ، كأنَّ من كان معكَ ما زالَ معك، وكأنَّ حديثَ الأمسِ ما زالَ مستمرًّا، ولكنك ربما لا تذكُرُ حديثَكَ بقدرِ ما تذكُرُ شُعُورَكَ بهِ، فالصُّوَرُ وِعاءُ المعانِي.

(١٢)

الكِبرُ: تعاظمٌ في قلبِكَ، ربما يكونُ فِرَارًا مِن ضَعْفِكَ، ورُبَّما يكونُ بحثًا عَن ذاتِكَ، كأنَّكَ لم تَجِدْ جَوابَ «من أنتَ؟» مقبولًا عندَ الناسِ، فرُحْتَ تَتَيهُ عليهم في قلبِكَ بأوهامٍ يُلقيها عقلُكَ، عنك وعنهم.

هو انتفاخٌ في القلبِ حتى يُظلِمَ العقلُ، فيتكلَّمَ اللسانُ بما لا حقيقةَ له، وترى العينُ ما لا وجودَ له!

كأنَّ قلبَكَ امتلأَ هواءً فلا يكادُ يَنفُذُ إليه شيءٌ، وليس فيه شيءٌ.

(١٣)

الضعفُ: شعورٌ بالعجزِ يُولِّدُ الألمَ في القلبِ، يُفقِدُ قلبَكَ الحيلةَ. تَظهَرُ حينها الحقيقةُ جليةً لك، كأنك طائرٌ توقَّفَتْ أجنحَتُهُ فجأةً فهوَى في لحظةٍ، إنه التعرِّي أمامَ النفسِ، لا يملِكُ قلبُكَ إلا أن يُسَلِّمَ بهذه الحقيقةِ: أنَّكَ غيرُ قادرٍ.

ربما انقلَبَ الأمرُ لغضبٍ وثورةٍ عارمةٍ، كأنك تنتقمُ مما تقدِرُ عليه، وكأنك في انتقامِكَ تُحدِّثُ قلبَكَ بأنَّك ما تزالُ قويًّا، تستطيعُ أن تَصيحَ، أن تُكسِّرَ الأشياءَ، كأنك تفرُّ من حقيقةِ عجْزِكَ!!

وأحيانًا تُحدِّثُ نفسَكَ بأنَّ كلَّ شيءٍ على ما يُرَامُ، كأنَّ مَن رحلُوا لم يفعلُوا، وكأنَّ ما فاتَكَ لم يكنْ كذلك.

ستكرِّرُ الأمرَ على نفسِكَ حتى تُصدِّقَهُ، ولكن قد تأتي لحظةُ الصدقِ في صورةِ انهيارٍ.

وربما انقلبَ الضعفُ إلى سكونٍ وتسليمٍ، بل إلى فرحٍ بحقيقةِ هذا الإدراك، فكأنَّ القلبَ لا يسكُنُ إلا إن تجرَّدَتْ عنه الأوهامُ!

(١٤)

هل سمعتَ قلبَك؟

إنه يُحدِثُكَ دومًا، يخبُرُكَ عن نفسِكَ، ويشكو لك ويستنجِدُ بك، ألا تسمَعُهُ؟

سَيُخْبِرُكَ بحقيقةِ مشاعرِكَ، وأنك كنتَ تتصنَّعُ خِفَّةَ الدمِ ليلةَ أمس، وأنَّكَ تكلَّمْتَ بكذا لتلفِتَ إليك نظرَ فلانٍ.

سيُخْبرُكَ أنك تفِرُ من ألمِكِ بمرَحِكَ، أو تنشغلُ عن ضعفِكَ برِحْلاتِكَ وجِدَالاتِكَ.

سيقولُ لكَ: إنَّكَ كنتَ سعيدًا معَ فلانٍ وشعَرْتَ معه بالراحةِ، كنتَ تشعُرُ معه بأمانٍ لم تألَفْهُ، وبقُربٍ لم تعتدْ عليه.

ولكنكَ لا تستمعُ إليه! إنَّك تُصِرُّ على الهروبِ منه، وكأنه - لصدِقِه - سيَفْضَحُكَ، فحتى إن أخبرَكَ بما يَسُرُّكَ، فهو لا محالةَ سيُنبِهُكَ إلى ما تريدُ ستَرَهُ عن نفسِكَ!

(١٥)

أراكَ تسأَلُنِي: قد أكثرْتَ ذِكرَ العقلِ وتهجُّمِهِ على مَيدانِ القلبِ، فهل هُما إلا واحدٌ، وهل حديثُ النفسِ إلا حديثُ العقلِ؟

فجوابي لك تجِدُهُ في نفْسِكِ، فالعقلُ هو عالَمُ الأفكارِ، حيث لا مشاعرَ ولا معانيَ حيةً، بل أحكامٌ جامدةٌ غيرُ نابضةٍ، تنسابُ المقدماتُ والنتائجُ كعمليةٍ رياضيةٍ بسيطةٍ أو مُعقّدةٍ، تتقلّبُ الاحتمالاتُ، وترْجُحُ كفةُ شيءٍ على شيءٍ.

أما القلبُ، فمَيدَانُ المعاني: القبضُ والبسطُ، السعادةُ والحزنُ، الخوفُ والألمُ، فلا معنى إلا وله إشراقٌ في قلبِكِ، وحديثٌ إلى رُوحِكَ، ولكنَّكَ اعتدتَ ألَّا تسمعَ له، فتوارَى يُحدِّثُ نفسَهُ واستأثرَ بك العقلُ، فلم تظنَّ فيكَ سواه.

رُبَّما توهَّمْتَ أنَّ القلبَ هو المشاعرُ، وليسَ كذلك، إنه مَيدَانُها ووعَاؤُهَا، مشرقُها ومغربُها، وليس هي، فشتَّانَ بين الحبِّ والمُحِبِّ.

(١٦)

للقلبِ نورٌ يُبصِرُ به، يرَى ما لا يراهُ البصَرُ ويُدْرِكُ ما لا يُدْركُهُ العقلُ، كم من مرةٍ شعَرتَ بصدقِ مَنْ أمامَكَ، أو أدركتَ زيفَهُ وخِدَاعَهُ لك مِنْ غيرِ دليلٍ

تستطيعُ صياغَتَهُ لإقناع غيرِك؟! نُسَمِّيها «البصيرةَ»، وهي النورُ الحقيقيُّ في عالمِك الإنسانيِّ، بها تتمايزُ الحقائقُ وتُحْسَمُ الشبهاتُ. ربما قوِيَتْ فصارَتِ المعانيْ واضحةً أمامَكَ وضوحَ المرئيَّاتِ للبصرِ، وربما ضَعُفَتْ حتى نسِيْتَ وجودَها!

بقوتها تشرقُ المعاني في القلبِ، كأنَّ هناك مَنْ يُخبرُكَ بخبايا الصدورِ ومُستكنِّ الضمائرِ، بل كأنكَ ترى حديثَ نفسِ مَنْ أمامَكَ، حبَّهُ لك أو خوفَهُ منك.

وبقدرِ صفاءِ قلبِك ورِقّتِهِ، بقدرِ ما يكونُ إشراقُ المعاني فيه وقوةُ بصيرتِهِ.

(١٧)

صفاءُ القلبِ: هو ترتبُ المعاني فيه وانفصالُها، فلا يختلطُ معنًى بمعنًى ولا يتشوشُ إدراكٌ بإدراكٍ.

حتى وإن اختلَطَتْ في الوجودِ والواقعِ، فإنَّ القَلْبَ يُدركُها متمايزةً بلا اختلاطٍ، فيُميِّزُ الخيرَ الذي في قلبِ المجرمِ عن شَرِّهِ، ويميزُ شهوتَهُ عن ضعِفِهِ، كأنكَ تنظرُ إلى خطوطِ سَجَّادةٍ نُسِجت متداخلةً، فيُميّزُ بصرُكَ بين خيوطِها خيطًا خيطًا.

والقلبُ الذي اعتادَ الصدقَ مع نفسِهِ هو أكثرُ القلوبِ صفاءً، فخِداعُ النفسِ تشويشٌ على القلب وإرهاقٌ له.

والقلبُ إن اعتادَ الصدقَ استعدَّ لكلِ معنًى يرِدُ عليه، فسكَنَ في محِلِّهِ وحَجْمِهِ، بلا زَيْفٍ ولا خداعٍ، وتلك صورةُ الصفاءِ.

أمّا ثمرتُهُ؛ فدوامُ يقظةِ القلبِ لإدراكِ المعاني.

أمّا حقيقتُهُ؛ فطهارةُ القلبِ من كلِّ دخيل.

(١٨)

الصدقُ: رؤيةُ القلبِ للأشياءِ من وراءِ الحُجُبِ، فلا يقعُ فعلٌ منه إلا وهو مُدرِكٌ لحقيقةِ نفسِهِ، لمَ فعَلَ ما فعَلَ، بلا تبريرٍ ولا تسميةِ الأشياءَ بغيرِ اسمِها.

إنه تذوُّقُ القلبِ للمعاني كما هي، فيذوقُ في الحبِّ اضطرَابَه، ويذوقُ في الشَوقِ اعتصارَهَ، ويذوقُ في الكذِبِ ظُلمَتَهُ، وكأنَّ المعانيَ هي حركاتٌ للقلبِ، انقباضاتٌ وانبساطاتٌ، نورٌ وظُلمةٌ، بردٌ ودِفء. والصدقُ هو تلقِّي القلبِ للمعانِي كما هي، مِن غيرِ أن تمُرَّ على العقلِ الذي يَكسُوها ثيابَ القَبولِ أو الرفضِ.

(١٩)

اليقظةُ: للقلبِ غَفَلاتٌ كغفلاتِ النائمِ، وله انتباهاتٌ كانتباهِ من أحدقَ به الخطرُ، فإن كانَ في غفلتهِ مرّتْ عليه المعانيْ مرورَ الكِرامِ، لا يرى منها شيئًا ولا يفهمُ منها رسمًا.

وإن كان في يقظتِه لم يرَ في الوجودِ شيئًا إلا وأبصرَ فيه معنًى، حتى حركاتِ أصابِعِهِ وتتابعِ أنفاسِه.

لا يغْفُلُ عن خطيئتِهِ، ولا تغيبُ عنه وِجهتُهُ، كأنه يمشي في الوجودِ مِشْيَةَ الخبيرِ ببيتِهِ، فحتى إن تعثّرَ، علِمَ من أين جاءَ الزللُ، وإن سقَطَ انتبهَ إلى ما أسقطَهُ.

فليسَتْ يقظتُهُ في ألَّا يسقُطَ، بل يقظَتُه في أن يُدْرِكَ.

(٢٠)

قد تفيضُ المعاني، فينطلقُ اللسانُ، إنه ينطلقُ حاكيًا ما يراهُ القلبُ، كأنه يُملِي على كاتبٍ ضليعٍ ما يراهُ بوضوحٍ، فيُخبِرُهُ بكلِّ ما يراهُ.

وقدْ تزدحمُ المعاني حتَّى تختنقَ وتتداخلَ، فإن أرادَ وصفَهَا، صارت شبحًا ضبابيًّا لا يكادُ يوصَفُ.

حينها تختنقُ العبارةُ ويصمُتُ اللسانُ عاجزًا، إنهُ يشعرُ بالمعنَى، ولكنه يعجَزُ عن البيانِ! وما أشقَّهُ مِن شعورٍ؟!

والقلبُ الذي اعتادَ التمييزَ بين مدارِكِه، هو أسهلُ القلوبِ بيانًا، ولكن يُخْرِسُهُ قوةُ المعنَى، فرُبَّ قَلْبٍ سكَتَ لاشتباكِ المعاني، ورُبَّ قلبٍ سكَتَ لقُوَّتِها.

(٢١)

العينُ مرآةُ القلبِ، فيها تنعكسُ المعاني وتُشرِقُ المشاعرُ، لا تكادُ تكذِبُ، بل إنْ أمعنتَ النظرَ فيها انفتحَ لك حديثُ القلوبِ!

قد ترَى فيها الألمَ أو الشوقَ، تراهُ ولا تعلمُ كيف رأيْتَهُ، وما الذي أخبرَكَ بما رأيتَ؟! أَلَها لغةٌ لم تُقَعَّدْ بعدُ؟! أم إنهَا صلةٌ بين القلوبِ، وللقلوبِ حديثٌ تَفْهَمُهُ عنْ بعْضٍ؟!

قد تُغنِي نظرةٌ عَن مئاتِ الكلماتِ، وقد يكونُ النظرُ للعينِ بدايةَ الاستماعِ لكلِّ قلبٍ.

(٢٢)

كم من مرةٍ رأيتَ فيها إنسانًا فشعَرتَ أنكَ تعرفُه منذُ سنينَ، ووجدْتَ ميلًا له وقربًا منه وراحةً لوجودِه؟!

فإنِ اقتربْتَ منْهُ، وجدْتَ عندَهُ كالذي عِندَكَ، ووجدَتَهُ يُقبِلُ عليك كما أقبلتَ عليه!

يقولون إنَّ القلوبَ تعارفَتْ في الماضي، فإنِ التقَت تجدَّدَ العهدُ وتجدَّدَ الوُدُّ.

ولكِنْ ما أكثرَ ما نُضيّعُ هذا العهْدَ القديمَ بأوهامٍ وقيودٍ نصنعُها! تارةً نخافُ أن يصُدَّنَا أو أن يُسيءَ فَهْمَنَا، وأُخرى نرَى في إقدَامِنا على القُربِ ممنْ لا نعرِفُه ما يُسقطُ وقارَنّا الزائفَ، فتضيعُ الفرصةُ وسَطَ الأوهامِ، ويضيعُ الصديقُ القديمُ وسَطَ الزحامِ.

فلتقتربْ في مَهلٍ أدَبًا، ولكنْ عليكَ أنْ تَمُدَّ يدَكَ لمَنْ عرَفَهُ قلبُكَ.

(٢٣)

من عجيبِ أمرِ القلبِ أنهُ قدْ يحبُّ من لا يألفُهُ!

نَعَمْ، يتعلَّقُ برُوحِهِ ويفِرُّ مِن سلوكهِ وعاداتِهِ وطريقتِهِ! ولا تعجَبْ من هذا، فالسلوكُ ربما لا يأتي مِنَ الرُّوحِ، بل مِنْ عاداتٍ عاشَ عليها، وتلقَّنَهَا منذُ صِغَرِه، حتى صارَ طبْعُه في معزِلٍ عنْ روحه، فروحُه في جهةٍ، وطبعُه في جهةٍ أخرى!

ولو تشابهَتِ الأرواحُ لتقاربتِ الطباعُ، ولكن ليس هذا في إنسانٍ تتقلّبُ عليه العوارضُ والمؤثّراتُ.

وأعجبُ مِن هذا حبُّ القلوبِ المختلفةِ لبعضِها، فليسَ مِن شرطِ الحبِّ التشابُهُ، بل الحبُّ ارتباطٌ بينَ القلوبِ لا تدري سِرَّهُ، كما كان الأقدَمُون لا يُدرِكُونَ سِرَّ انجذابِ الحديدِ إلى المِغنَاطِيسِ!

فإن تقاربَتِ القلوبُ المتشابهةُ تآلَفَتْ، وإن تقاربتِ القلوبُ المتباينةُ، تزاحَمَتْ وتصارعَتْ، فيُسَمُّونَهُ: تنافُرَ الأضدادِ.

(٢٤)

السعادةُ: لذةٌ تسري في القلبِ، كأنَّ القيودَ التي عليه قد أُزيلتْ، فلا يشعرُ إلا باللحظةِ، ولا يعدو الفكرُ الحاضرَ، ففي السعادةِ ينقطعُ عن الماضي والمستقبلِ، فلا همٌّ يخشاهُ ولا حزْنٌ يَجْذِبُهُ للأمْسِ.

قد تكونُ بخبرٍ يُسعِدُهُ أو بشهوةٍ تملَؤُه أوِ بُلقيَا حبيبٍ أو بشعورٍ بالطَهْرِ والقربِ من شريفٍ، تعددَتْ صُوَرُهُا فاختلَفَتْ حقائِقُها، بعضُها يتْبَعُها ألمُ الفِرَاقِ، وبعضُها يتبعُها دوامُ الاشتياقِ.

ولكنَّ أشدَّها وأجملَـها وأقلَّها كدَرًا وألمًا عندما تجِدُ قلبَكَ، عندما تُخاطِبُهُ وتَصْدُقُه، عندما يَسري شيءٌ مِن النورِ خلالَه، فتشعُرُ بقربِكِ منه وبقربِه من عالَمِ الرُّوحِ.

(٢٥)

الخاطرُ: يأتيك كوميضٍ لاحَ في سماءِ قلبِكَ وَسَطَ الظُلمةِ فيُشرِقُ قلبُكَ، أو كنارٍ وسَطَ سُكونِ قلْبِكَ فيضطرِمُ، يأخذُكَ للماضي حينًا أو يُحَلِّقُ بك في سماءِ الرُّوحِ أحيانًا أخرى، يأتيكَ بالفَهْمِ أو بالوهْمِ، كأنَّ هناكَ مَنْ حدَّثَكَ أو ذكَرَكَ.

ربما أتاكَ سريعًا ورحَلَ سريعًا، فلا يكادُ يبقى له أثرٌ، وربما حَرَّكَ منك كلَّ ساكنٍ، وأطالَ التكررَ حتى انشغلَ به العقلُ فتداعَت الأفكارُ، وربما نهَضَتْ له الجوارِحُ.

رُبَّما أكثرَ من زيارتِك واهِنًا، ثم يزدادُ وضوحًا في كلِّ زيارةٍ تَجِدُّ، كأنه يقتربُ منك رويدًا رويدًا.

نَعَمْ، بعضُه خاطِرٌ شريفٌ يَسمُو برُوحِكَ، وآخَرُ يَسمُو بعقلِكَ. وبعضُهُ خاطرٌ مَخُوفٌ يُحَرِّكُ ساكِنَكَ ويُثيرُ نَفسَكَ.

قد تدفَعُهُ بصرفِ الفِكرِ إلى غيرِهِ، وقد تُنصِتُ إليه فما زالَ يُحَدِّثُكَ حتى يستولِيَ عليكَ. إنه يأتي دومًا، أمَّا بقاؤُهُ أوِ انْصرافُهُ، فرهينٌ بكَ.

(٢٦)

للقلبِ أقنعةٌ كأقنعةِ الوجهِ، يستَتِرُ بها ويُظْهِرُ خِلَافَ حَقِيقَتِهِ، فقسوةُ الحياةِ تأبَى إلَّا أنْ يُواجِهَهَا بما يَضمَنُ له الأمانَ، قد يراهُ في قوّةٍ زائفةٍ يُظهِرُهَا للناسِ، أو سُلطةٍ يَحمِي بها نَفَسَه أو وجاهةٍ تحفظُ ماءَ وجهِهِ، ولكنها ستبقَى في النهايةِ أقنعةً تُغَطِّي حقِيقَتَهُ، ليستْ هو علَى الحقيقةِ.

والمُشكِلُ يأتِي عندما يألَفُ هذا القِنَاعَ، فلا يَقدِرُ على العَيشِ بدُونِهِ، حتى في اللحَظَاتِ التي يُواجِهُ فيها مَنْ لا يَحتاجُ معهم إلى هذا القناعِ. والأشدُّ إشكالًا، عندما يزدادُ إلفُهُ بقناعِهِ، حتى يتوهَّمَ أنه هو، وأنَّ حقيقَتَهُ مِنْ حقيقَتِهِ، حينها يَطْغَى الوَهْمُ وتعيشُ خارجَ قلبِكَ. تعيشُ في قالَبِكَ الموهومِ.

(٢٧)

ما إنْ تفهَمُ قلبَكَ، وتُدرِكُ حقيقةَ نَفْسِكَ، حتَّى يُوقِعَكَ عقلَكَ في فخٍّ صنعَهُ لكَ بإحكامٍ، إنه يقودُكَ دومًا إلى التبريراتِ إنْ كانَ انتباهُكَ مؤْلِمًا، أو للخُطِطِ والبحثِ عن حلولٍ إن كانَ تغييرُ نفسِكَ مُمكِنًا، قد تظنُّ أنَّ هذا حَسَنٌ - وهو كذلكَ - ولكِنْ ينبغِي وأنتَ تُحَرِّكُ جَوارِحَكَ، وتسعَى في رحلةِ صدْقِكِ ألَّا تغْفُلَ عن قلبِكَ مرةً أخرى، فهو ابنُكَ الصامِتُ لسنواتٍ، فلَمَّا تكلَّمَ، جاءَ أخوه الأكبرُ فقالَ: دعْني أُصلِحْهُ، فأنا أدرَى الناسِ به، فعُدْتَ لشُغُلِكَ استنادًا إليهِ، وتركْتَ الأمرَ.

والعقلُ إن استفْرَدَ بالقلبِ أنزلَ به صنوفَ الأوهامِ وشغَلَهُ بضروبِ الحِيَلِ، فتعودُ مُبتعِدًا عنه، ويلوذُ هو بالصمتِ مرةً أخرى إيثارًا للسلامةِ، وهرَبًا مِن سطوةِ الأخِ الأكْبَرِ.

(٢٨)

الخوفُ: بردٌ يسري في قلبِكَ فيُجيلُ الدنيا للونٍ باهتٍ لا حياةَ فيه، تَفْقِدُ الأمانَ فتستوحِشُ الوجودَ، والقلبُ لا يألَفُ الحياةَ الباردةَ، فلا محالةَ يبحثُ عن دفءٍ يَسْتَتِرُ به، ويأوِي إليه، قد يراهُ في وهْمٍ يصنَعُهُ فيأنَسُ به، أو صُحبةٍ تؤْنِسُهُ، أو في البحثِ عن حُبٍّ يحتويهِ، وقلبٍ يَشعرُ به.

نخافُ مِن وَحشةِ الحياةِ، ونخافُ مِنَ الفقدِ، ونخافُ من ضَعْفِنا، وفي كلٍّ نحنُ نخافُ من الألمِ، لا نريدُهُ ونَفِرُّ منه، فإنْ بدَا لنا شيءٌ مؤلِمٌ فررَنَا منه، نَفِرُّ مِن الألمِ من غيرِ حِسابِ نفعٍ ولا ضُرٍ.

وفي فرارِنا الخائفِ هذا، نأوي إلى أوَّلِ نارٍ أو نُورٍ يَلُوحُ، رُبَّما أسرَعْنا بالاقترابِ حتَّى نَحترِقَ، ورُبَّما اقترَبْنَا فلم ننتبِهْ إلى أنَّها ظِلٌّ لا حقيقةَ له إلَّا بعدَ طولِ وقتٍ.

فقطْ يزولُ الخوفُ عندما نَثِقُ، ولن نَثِقَ إلا إذا أدْرَكْنَا بقلوبِنا أنَّ مَنْ نزَلْنا بساحِتِه أهْلٌ للأمانِ والرَّحْمَةِ.

(٢٩)

القلبُ إنْ سَكَنْ، رأى في الوجودِ ما لا يراه حالَ اضطرابِهِ، فإذا به يُدْرِكُ فيمَا يَخَافُهُ الأمانَ، وفيما يَفِرُ منهُ السعادةَ.

يرى أنَّ ما يرجُوه ليسَ بشيءٍ وأنَّ ما غَفَلَ عنهُ كانَ هو كلُّ شيءٍ.

عندَما يَسْكُنُ القلبُ، تتمايَزُ الألوانُ، وتَتَّضِحُ دقَّةُ النَسْجِ في هذا الوجودِ، فلا يطغَى البصَرُ ولا يَزِيغُ.

عندها يُدْرِكُ أنَّ نَسْجَ غيرِهِ أولَى مَنْ نسجِهِ لنَفْسِهِ، وأنَّ هناكَ مَنْ يقبَلَكَ على كلِّ حالٍ كَانَ مِنكَ، ليُفيضَ عليكَ الوجودَ ويُدخِلَكَ إلى ساحةِ الجُودِ.

رُبَّما لا يَسْكُنُ قلبُكَ إلا بعدَ طُولِ ألمٍ يَقْهَرُهُ حتى يستنفِذَ قُواه، ورُبَّما يَسْكُنُ بعدَ طُولِ إنعامٍ لا يُبقِي لجحودِه إيَّاهُ بقَاءً.

رُبَّما قُيِّضَ إلى السكُونِ بسلاسِلِ الامتِحَانِ أو بخيوطِ الإحسانِ.

رُبَّما اسْتمَعَ مرةً لقلبِهِ فدَّلَهُ على حبيبِهِ الذي دامَ الإعراضُ عنه، أو أسْمَعَهُ كلَاَمَهُ الذي طالَ هَجْرُهُ له.

وعندما يأتي السكونُ يأتي التسليمُ، فإن جاءَ التسليمُ كانَ الرِّضَا، وفي الرِّضَا يُولَدُ القَلْبُ مِنْ جَديدٍ.

(٣٠)

هذه نهايةُ رحلةٍ، وليسَتْ نهاياتِ الرِّحْلَاتِ، طَوَّفَنَا في القلبِ واستمعْنا لحديثِهِ، حاولْتُ أنْ أُسْمِعَكَ بَعْضَ مَا لَمْ تَعْتَدْ سَمَاعَهُ مِنْ أنفُسِنا، وأنْ أُصْحَبَكَ لداخِلِ نفسِكَ؛ لتعتادَ استمَاعَ المعانِي وتمييزَ الخواطِرِ؛ فنحنُ في عالَمٍ لمْ يَعْتَدْ سِوَى سماعِ صوتِ الآخَرِينَ، لا سماعَ صوتِ قلبِه، وإنِ اسْتمَعَ له؛ اسْتمعَ لأفكارِ عَقْلِهِ، لَا لإدْرَاكَاتِ قَلْبِهِ وما يَنبِضُ به القلْبُ من مشاعِرَ ومَعَانٍ.

أرْجُو أنْ تبدأَ من هنا الرِّحْلةُ لا أنْ تنتهِيَ، أنْ تبدأَ عَلاقَتُنَا بِقُلُوبِنَا وفَهْمِنَا لِنُفُوسِنا، أنْ نستمِعَ لمخاوِفِنا ومشاعِرِنَا وآلَامِنَا.

لَا تَخَفْ إنِ اقْتَرَبْتَ مِنْ نفسِكَ فهَالَكَ ما وَجَدْتَ فيها من ضَعْفٍ وقُصورٍ ووهْمٍ واحتياجٍ وزَيْفٍ. فإدراكُكَ أوَّلُ الطريقِ، وسُمُوُّ رُوحِكَ يبدأُ عندمَا تَخْلَعُ عنها خُيوطَ العَنكبوتِ.

انْتهَتْ رِحْلَتِي مَعَكَ؛ لِتَبْدَأَ رِحْلَتُكَ وَحْدَكَ، مَعَ قَلْبِكَ أنْتَ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خَاتِمَة

كَانَ مَا سَبَقَ حَدِيثَ نَفْسٍ يَنقُلُ لكَ ما رأيْتُ في نفسِي، ما عَلِمْتُه مِن ضعْفِها أو خِدَاعِهَا أو خللٍ في فِكْرِها.

كانتْ خواطِرَ مِن هُنَا وهُناكَ كُتِبَتْ مِن غيرِ سَبْقِ تدبيرٍ، وما سكَتُّ عنهُ أكثَرُ.

ولَا أدرِي إنْ كنْتَ خَرَجْتَ مِن هذا الكتابِ بشيءٍ أمْ كانَ لا يحتوِي على شيءٍ، ولكنْ حسبِي أنِّي كتَبْتُ ما كتَبْتُ عفوَ الخاطِرِ بِلا تكلُّفِ معنًى أو تنميقِ عبارةٍ.

قدْ يكونُ الكتابُ أقرَبَ إلى أحاديثِ السَّمَرِ، وقدْ يكونُ أقربَ إلى بَوْحٍ بالمعانِي، فإنْ وَجدْتَ فيهِ فائدةً أرْشَدَتْكَ، أو فكرةً أنارَتْ لك شيئًا في نفسِكَ، فهذا حسبِي مِن تسويدِ السُّطُورِ.

وإلَّا فغايَةُ طلَبِي ألَّا يكونَ حديثُ نفسِي إليكَ ثقيلًا، فإنْ لمْ تَكُنِ اسْتَفَدْتَ شيئًا، فلعلَّكَ أَنِسْتَ بحديثِي، وإلَّا فالعفوُ مِن الكريمِ كَرَمٌ، والكريمُ مَن صَانَ جَلِيسَهُ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات:

عن الكتاب..
مُقَدِّمَةُ الطَّبْعَةِ الرَّابِعَةِ
المُقدِّمَةُ
كيفَ نَفْهَمُ نُفُوسَنَا؟
القِسمُ الأوَّلُ
في طُرُقِ مَعْرِفَةِ النَّفْسِ
الطَّرِيقَةُ الأولى في مَعْرِفَةِ النَّفْسِ
الطَّرِيقَةُ الثَّانِيَةُ في مَعْرِفَةِ النَّفْسِ
الطريقةُ الثَّالِثَةُ في مَعْرِفَةِ النَّفْسِ
الطريقةُ الرَّابِعةُ في مَعْرِفَةِ النَّفْسِ
الطريقةُ الخَامِسَةُ في مَعْرِفَةِ النَّفْسِ
الطَّريقةُ السادِسَةُ في مَعْرِفَةِ النَّفْسِ
الطريقةُ السَّابِعةُ في مَعْرِفَةِ النَّفْسِ
الطريقةُ الثَّامِنَةُ في مَعْرِفَةِ النَّفْسِ
الطريقَةُ التَّاسِعَةُ في مَعْرِفَةِ النَّفْسِ
الطريقةُ العَاشِرَةُ في مَعْرِفَةِ النَّفْسِ
القِسمُ الثَانِي
حديثُ النَّفْسِ
نَفْسِيَ الَّتِي رَأَيْتُهَا
مَنْ أَنَا؟
هلْ نَحْنُ كَمَا نَظْهَرُ؟
فَرَاغُ الرُّوحِ
كَيْفَ نُفَكِّرُ؟
ضَعْفُنَا
القَيُّومُ
الفَقْرُ
الغفلةُ
البَاعِثُ
النسيانُ
قَسْوَةُ القلبِ
جَلْدُ الذَّاتِ
العَطَاءُ

الوُجُودُ
اللذاتُ والمُباحاتُ
درجاتُ الناسِ
المُقدِّمُ والمُؤخَّرُ
قُصُورُ الإدراكِ
بينَ الأمسِ واليَوْمِ
«وهُوَ الآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ»
نَقْضُ العَزائِمِ
إقبالٌ وإدبارٌ
الحُبُّ والعَقْلُ
الوَدُودُ
القِسمُ الثالثُ
«خَواطِرُ عَنْ مَعْرِفَةِ القَلْبِ»()
(١)
(٢)
(٣)
(٤)
(٥)
(٦)
(٧)
(٨)
(٩)
(١٠)
(١١)
(١٢)
(١٣)
(١٤)
(١٥)
(١٦)
(١٧)
(١٨)
(١٩)
(٢٠)
(٢١)
(٢٢)
(٢٣)

(٢٤)
(٢٥)
(٢٦)
(٢٧)
(٢٨)
(٢٩)
(٣٠)
خَاتِمَة

Notes

[←1]

(1) أُذِيعَتْ في رمَضَان ١٤٣٩هـ بعنوان «الطريق إلى القلب» على قناة «رواة».